الدكتور
عبد الحليم عويس

صور وبطولات
من حضارتنا الإسلامية

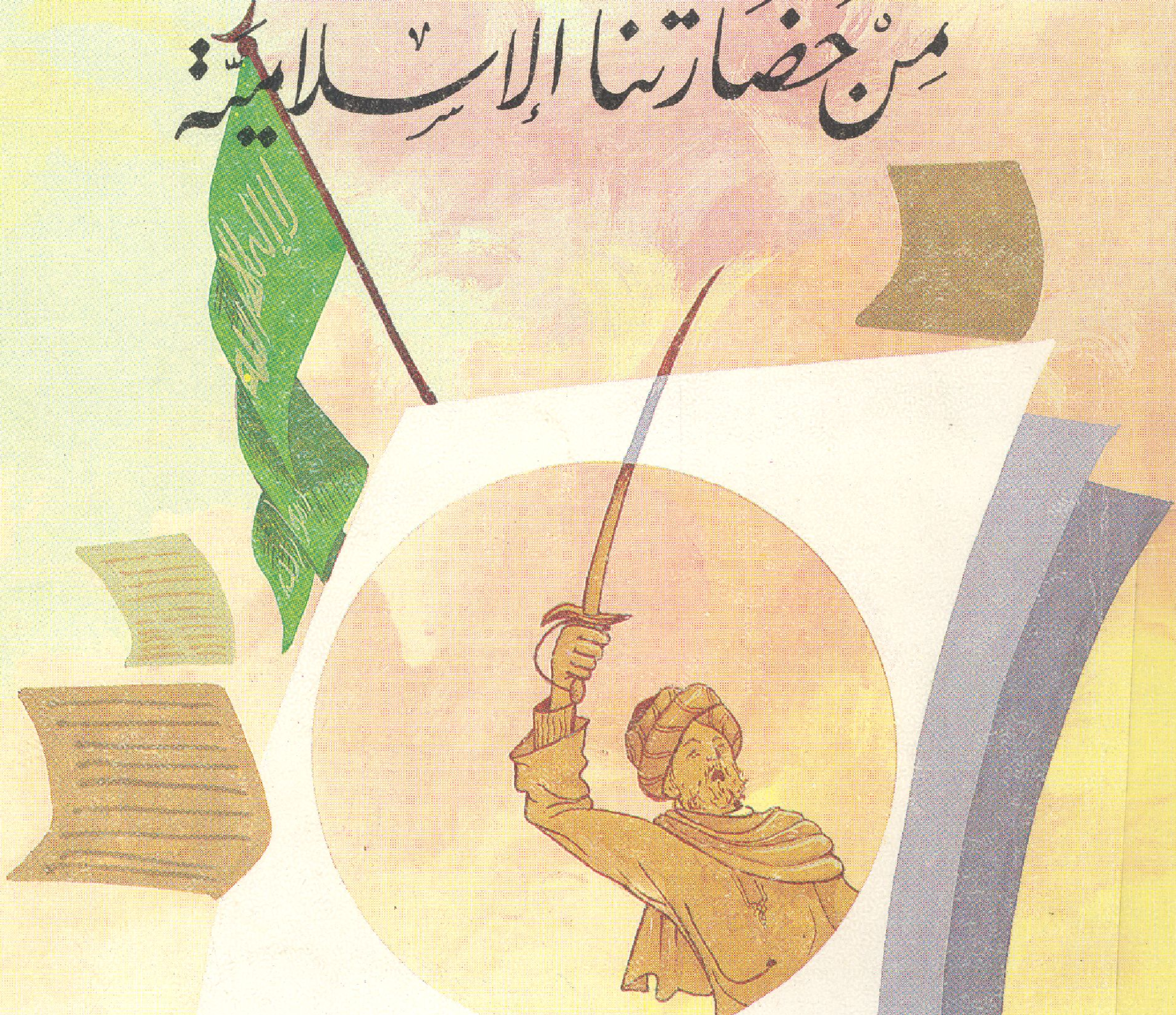

دار الصحوة للنشر

صور وبطولات

من حضارتنا الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

دار الصحــوة

للنشــر والتوزيــع

٧ شارع الســراى بالمنيــل ــ القاهــرة

تليفــون : ٩٨٧٩٢٤

صور وبطولات
من حضارتنا الإسلامية

تأليف الدكتور
عبد الحليم عويس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

هذه صور من حضارتنا . . التقطت من حديقة الحضارة الإسلامية الثرة المعطاءة . . .

وهي صور ركز القسم الأول منها على (الدول) وعطائها الحضاري ، وركّز القسم الثاني على (الأفراد) وما قاموا به من بطولات كان لها صداها الفذّ في حضارتنا . . .

وحضارتنا حضارة (دعوة) و (دولة) . . وأمجادها العظيمة وصفحاتها الرائعة إنما كتبها الأفراد المسلمون ، والحكام المسلمون . . إذا التحم هؤلاء بأولئك . أما إذا اختلفوا وتصارعوا ، فالويل لكليهما معاً . . . والعدو هو الفائز الوحيد .

وهذه الصور والبطولات تؤكد هذه الحقيقة ،وتومىء إيماءات قوية ـ لمن ألقى السمع وهو شهيد ـ إلى أكثر من معلم من معالم حضارتنا . صعوداً وهبوطاً .

وقد كنتُ في كتابي (أوراق ذابلة من حضارتنا ـ دراسة لسقوط ٣٠ دولة إسلامية) ركّزْتُ على فترات (الغروب) . . . وانتقيت من كتاب الحضارة الإسلامية ثلاثين صفحة . . وهي في سطورها الأخيرة . . أعني : ثلاثين دولة في فترة سقوطها . . . وقد خشي عليّ بعض النقاد أن أكون من المتشائمين . . . بل وحثّني بعضهم ـ جزاهم الله خيراً ـ ومنهم صديقنا العلامة الأستاذ (أنور الجندي) ـ على أن أتناول ـ في المقابل ـ شرائح من (فترات الشروق) في حضارتنا . . . حتى تكتمل الصورة . . إيجاباً وسلباً .

وعلى كل ـ فمنهجي . . هو منهجي . . فمن خلال دراسة فترات الشروق والغروب ـ معاً ـ سنعرف طريقنا ، ولعلنا نعرف أسباب القوة . . وأسباب الضعف . . . وقوانين الله ـ في القوة والضعف ـ سواء ، بل إن الحقائق تبدو محايدة قابلةً لأن ترفع أقواماً وتخفض آخرين . فالمال . . قد ينفع وقد يضر . . وعقيدة القضاء والقدر قد تنفع أقواماً ـ كالمسلمين الأوائل ـ وقد تضر آخرين ـ كالصوفية القاعدين . . وهكذا ، فالإنسان ، والإيمان بالحقائق ، وتغيير ما بالنفس . . هي الفيصل . . .

* * *

وتبقى من وراء هذه القصص ، ومن وراء قصص

السقوط . عبرة كبرى تبدو مثالقه في كل ركن من أركان حضارتنا ، صعودا وهبوطا . إنها عبرة عظمى تلخصها آيتان كريمتان . . أولاهما تقول . ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ وثانيتهما تقول . ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين﴾ . . إنهما آيتان فاصلتان تكمل إحداهما الأخرى ، بل هما قانونان حضاريان لا ينفصلان . . علمتنا إياهما حضارتنا الإسلامية . . . الخالدة بإذن الله .

عبد الحليم عويس

الرياض، غرة ربيع الأول سنة ١٤٠٢ هـ

القِسْمُ الأوَّل

صُوَرٌ من حَضَارتنَا الإسْلاميَّة

صورة من حضارتنا في الصين

تفوق الأرض الإسلامية الخاضعة للنفوذ الشيوعي الصيني مساحة عدة دول أوربية مجتمعة ، وتحتضن أرض هذه البلاد الإسلامية ثروات طبيعية متنوعة على رأسها النفط والأورانيوم والنحاس والحديد والذهب وغيرها .

ومعظم البلاد الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال الشيوعي الصيني تنضوي تحت اسم (تركستان الشرقية) ، بعد أن اتفق المعسكران الشيوعيان الكبيران (روسيا والصين) على تقسيم تركستان الإسلامية بينهما ، فسيطر الاحتلال السوفيتي على تركستان الغربية ، وسيطر الاحتلال الشيوعي الصيني على تركستان الشرقية ، وكان هذا الاتفاق المشئوم سنة١٩٤٩م

وقد أرسل الخليفة الراشدي عثمان بن عفان وفدا إلى الصين ، في صفر سنة ٣١ هـ ٦٥١م في عهد أسرة نانغ . . .

وقد دخل الإسلام إلى تركستان الشرقية على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وقد بدأ دخول الأتراك للإسلام زرافات وجماعات في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، وكان هذا الامتداد المفاجىء بسبب إسلام السلطان (ستوق بغراخان) سنة ٣٥٣ هـ ، فأسلم الشعب التركستاني كله ، بعد أن كان انتشار الإسلام يمشي بطيئاً وهادئاً لقيامه على الدعوات الفردية والجهود المخلصة المحدودة !!

وعدد السكان المسلمين في تركستان الشرقية يقترب من عشرين مليوناً كلهم متدينون شديدو التدين ، إلا أن عدد المسلمين في الصين قد بلغ أكثر من خمسين مليون مسلم صيني ، حسب آخر إحصاء رسمي أجري في الصين عام ١٩٣٦ .

وقد تعرض هذا العدد لنقصان شديد نتيجة الإبادة الشيوعية الجماعية التي تعرضوا لها[1] على يد حكومة ماوتسي تونج ، ولا أحد يستطيع الآن أن يعرف عددهم الصحيح ، لكنه من المحتمل أن يكون المسلمون قد فقدوا قريباً من نصف عددهم في مجازر الزحف الشيوعي والثورات الثقافية البربرية .

(١) انظر فؤاد كرم : الإسلام والمسلمون في الصين الشيوعية ١٤ وما بعدها طبع بيروت .

وقد كان لهؤلاء المسلمين الصينيين تاريخ عريق ، ودور إسلامي كبير ، وصفحة من الصفحات الرائعة في حضارتنا استمرت نحو ألف سنة ، ونأمل أن تستأنف مسيرتها بإذن الله .

لقد تمكن العنصر التركي الإسلامي الأصيل أن يقضي على دولة كوك تورك التي عاشت بين سنتي ٥٥٢ ، ٧٤٥ م ، وقد هزموا الغزاة الصينيين في موقعة مشهورة في التاريخ التركستاني ، وتعرف باسم موقعة (تالاس) وكان ذلك في سنة ٧٥١ م ، أي في منتصف القرن الثاني الهجري على وجه التقريب ، ومنذ هذا التاريخ ، ولعشرة قرون كاملة عاشت تركستان منطقة مستقلة تحكمها دول إسلامية نابعة منها ، كالدولة الأويغُورية التي كان لها السيطرة الكاملة في تركستان ومنغوليا وولاية كانسو في الصين ، وقد فرضت هذه الدولة الأويغورية هيبتها على الصين ، فراجت التجارة ، وحميت الطرق ، وانتشر التراث الإسلامي . . . وقد استطاعت هذه الدولة أن تعيش قرناً كاملاً حتى انتهت على يد هجمات القيرغير لمنغوليا ، ولجوء كثير من التركستان إلى الغرب المنغولي، سنة ٨٤٠ م . ولم يكن من الأويغور التركستان، بعد هجوم القيرغير عليهم ، وشدهم الرحال نحو الغرب ـ إلا أن استقروا في تورغان ، وبسن باليق وإيلي ، وشكلوا هناك امارتي (بسن باليق) و (تورغان) . . . ثم نهضوا نهضة

ثانية ، وفرضوا تهديدهم على الصينيين ، وكونوا ـ مع غيرهم من العناصر الإسلامية ـ عدة ممالك إسلامية متجاورة ، واتحدت هذه الامارات والممالك بعيد سنة ٩٢٠ م ، أي مع بداية القرن الرابع الهجري حتى ظهر جنكيز خان مع مطلع القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ، فضم كل هذه الأقاليم تحت رايته .

وخلال هذه القرون كانت تركستان الشرقية مركزاً أساسياً للوجود التركي ، ومحطاً رئيسياً لنشاط الأتراك في شتى نواحي الثقافة والمدنية ، وقد تركوا آثاراً إسلامية كثيرة في المعمار والفنون والآداب والعلوم ، وقد بنوا من المساجد، نحو أربعين ألف مسجد ، وعلى الرغم من تعرض التركستان لضغوط نصرانية وبوذية ومانوية ، فإن الشعب التركستاني المسلم لم تبرز في حضارته أية مؤثرات خارج نطاق الحضارة الإسلامية .

وإن تراث الدول التركستانية التي قامت في تركستان الشرقية ، ولا سيما في عهود الأويغور ، والقراخانيين ، لتدلنا على عمق تأثير الحضارة الإسلامية ، وهي ـ من جانب آخر ـ شاهد نفي ، وحد مانع ضد الادعاءات الصينية الشيوعية[1] « وقد قام المسلمون الصينيون بدراسة العلوم الإسلامية

---

(١) انظر عيسى الب تكين (قضية تركستان) ص ٦٧ .

والعربية وإدخالها إلى الصين وخاصة علم الطب والرياضيات والفلك ، أما الأدوية والوصفات والمعلومات الطبية الأخرى التي نقلوها إلى الصين فقد ذكرت في صفحات كثيرة من كتاب (أصناف العقاقير الصينية) الذي طبع في القرن الثاني عشر ، وكتاب (الموسوعة الطبية الصينية) الذي طبع في القرن السادس عشر ، وكان المسلمون الصينيون يقومون برصد أحوال الجو بمساعدة علم الفلك العربي والفارسي .

وفي القرن الثالث عشر أنشئت إدارة إسلامية خاصة بمراقبة الأرصاد الجوية ووضع التقويم الصيني ، وفي سنة ١٢٦٧ اخترع الفلكي المسلم جمال الدين « المنوأة المتعددة الحلقات » و « المنوأة الموجهة » « والكرة السماوية » و « الكرة الأرضية » الخ ، وكان التقويم الهجري مرجعاً لوضع التقويم الصيني على مدار أربعمائة سنة ابتداء من أواسط القرن الثالث عشر ، وفي عام ١٣٨٢ تكللت جهود أحد مشايخ المسلمين بالنجاح في ترجمة الكتب العربية الخاصة بالتقويم والجغرافيا والفلك مما كسب الاطراء من قبل بلاط الامبراطور ، وحيث إن الرياضيات هي أساس علم الفلك فقد انتقلت الكتب الرياضية العربية هي الأخرى إلى الصين في الوقت بالذات ، وقد أثبتت ذلك السجلات التاريخية في عهد أسرة يواه ، ومن جراء ذلك انبثقت أعداد كبيرة من

الأكفاء في علم الفلك والرياضيات من بين المسلمين الصينيين في عهد أسرتي يوان ومينغ .

وقد عرف المسلمون الصينيون بمهارتهم الفائقة في البناء المعماري ، ففي الأيام الأولى من قدومهم إلى الصين بنوا مساجد في تشانفآن وقوانفتشو وتشيوانتشو وهانفتشو تيسيراً لأداء شعائرهم الدينية ، من ذلك أن مسجد هانفتشو الذي بناه علاء الدين في القرن الرابع عشر كان قد نال ثناء الرحالة العربي ابن بطوطة وقت زيارته للصين ، وقد رمم هذا المسجد مرات عديدة فهو لا يزال باقياً حتى وقتنا الحاضر ، وقد تكفّل بختيارعلاء الدين البنّاء المرموق بمهمة تخطيط بناء القصور لأسرة يواه الملكية سنة ١٢٦٦ م مما أرسى أساساً لبناء قصر الامبراطور الحالي ببكين »[١] .

ولقد قام المسلمون الصينيون بدراسة العلوم ، وكان عاملاً من عوامل نشرها بين الصينيين من الأجناس الأخرى . وكان مما نشروه علوم الطب والرياضيات والفلك ، بالاضافة إلى علوم الأدوية والعقاقير التي ورد ذكرها في كتاب « أصناف العقاقير الصينية » الذي طبع في القرن الثاني عشر الميلادي ـ السادس الهجري ـ وكتاب «الموسوعة الطبية الصينية» المطبوع في القرن العاشر الهجري .

---

(١) كمال الدين باي شيوبي : مساهمة المسلمين الصينيين في التاريخ (محاضرة بملتقى الفكر الإسلامي الثالث عشر بالجزائر) .

وقد برر الصينيون المسلمون في رصد أحوال الجـو بمساعدة علم الفلك العربي والفارسي وقد أنشأوا في القرن السابع الهجري إدارة إسلامية خاصة بمراقبة الأرصاد الجوية ووضع التقويم الصيني ، وقداخترع الفلكي المسلم (جمال الدين) الكرة السماوية ، والكرة الأرضية ، وبعض الأجهزة الأخرى . ولذلك كان التقويم الهجري مرجعاً لوضع التقويم الصيني على مدار أربعمائة سنة ابتداء من منتصف القرن السابع الهجري كما يذكر « كمال الدين باي شيو » نائب رئيس الجمعية الإسلامية للصين وكـما ألمعنا .

وفي نهاية القرن الثامن الهجري نجح أحد المسلمين في ترجمة الكتب العربية الخاصة بالتقويم والجغرافيا والفلك والرياضيات إلى الصينية .

وفي القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة برز (وانغ واي يوي) في الدفاع عن الإسلام فألف كتبه « الإجابات الصحيحة عن الحق » و « حقيقة الإسـلام » و « شريعة الإسلام » وغيرها ـ كما ألف الشيخ يوسف ماتشو كتاب « إرشاد المسلمين » في عشرة أجزاء .

وألف ليوتشه (حقائق الإسلام) في ستة أجزاء و (سيرة خاتم الأنبياء) في عشرين جزءاً ، وأحكـام الإسلام في عشرين جزءا

وقد ألف الشيخ ماده شين (صفوة أصول الدين) و (مقصد الحياة) و (التعريف بروح الإسلام) و (أحكام الدين) وقد طبعت من مؤلفاته نحو ثلاثين جزءاً .

* * *

لقد كان وانغ واي يوي (١٥٦٠ ـ ١٦٢٠) أول من كتب عن الدين باللغة الصينية ، وقد ألف كتاباً تحت عنوان (الجوابات الصحيحة عن الحق) أجاب فيه على التساؤلات عن الدين الإسلامي ، وقد طبع هذا الكتاب مرات عديدة في طبعات مختلفة وحظي بالشعبية الواسعة بين المسلمين الصينيين ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كتب « حقيقة الإسلام » و « شريعة الإسلام » وغيرهما من الكتب الخاصة بالتوحيد والفقه وأحكام الدين . إن الشيخ يوسف ماتشو (١٦٤٠ ـ ١٧١١) وهو مؤلف كتاب (إرشاد المسلمين) في عشرة أجزاء . ويفوق ليوتشة (١٦٥٥ ـ ١٧٤٥) المألوف في كمية التأليف والترجمة ومن مؤلفاته (حقائق الإسلام) في ستة أجزاء ، و (سيرة خاتم الأنبياء) في عشرين جزءاً و (أحكام الإسلام) في عشرين جزءاً الخ .

أما الشيخ ماده شين (١٧٩٤ ـ ١٨٧٤) فهو مؤلف مرموق وامام متعمق في علوم الدين كان يقوم بتدريس الطلاب في المسجد ويمارس في الوقت نفسه الترجمة

والتأليف ، ومن مؤلفاته وترجماته : (صفوة أصول الدين الأربعة) و (مقصد الحياة) و (تعريف روح الإسلام) و (أحكام الدين) الخ . وقد طبعت من مؤلفاته ثلاثون مؤلفاً وهي تتناول شتى المواضيع مثل شرائع الدين وأحكامه والفلك والجغرافيا وقواعد اللغة العربية والبلاغة ، وقد كتبت بعضها على يده وبعضها الآخر بتعاونه مع غيره . .. مع العلم بأن بعضها مكتوبة باللغة الصينية وبعضها الآخر مكتوبة باللغة العربية أو اللغة الفارسية ، أو باللغتين معاً ، وقد عاجلته المنية مع الأسف بعد ترجمته خمسة أجزاء من القرآن الكريم إلى الصينية فقط .

وبالإضافة إلى هؤلاء الأربعة المشهورين في عهد أسرة تشينغ فإن هناك العديد من أشباههم نحو جيون شي (١٥٦٧ - ١٦٥٧) وتسون تشي (١٥٩٨ - ١٦٩٨) وغيرهما . وجدير بالذكر أن سليمان دودن شيو (١٨٢٨ - ١٨٧٢) هو أول من قام بطبع القرآن الكريم في الصين على طريقة النحت الخشبي في سنة ١٨٦٢[١] .

وقد ظهر عدد كبير من المسلمين البارزين في حقول السياسة ، ويعتبر السيد شمس الدين (١٢١١ - ١٢٧٩) فذا منهم ، وقد عين حاكماً إدارياً لمقاطعتي شنشي

---

(١) المرجع السابق .

ويوننان على التوالي . وكان قد أقام نظام الزراعة الجماعية وقام بإنشاء المدارس والمساجد وبناء الكباري وشق الطرق الجبلية وإقامة مراكز البريد وبناء مشاريع الري وادخال البذور الجديدة والدعاية لاستعمال وسائل الانتاج المتقدمة لتطوير الاقتصاد المحلي. ويظل هذا السياسي العادل والنزيه موضع الاحترام والتقدير لدى أهالي مقاطعة يوننان حتى يومنا هذا بما قدمه من الخدمات الجليلة ، ويعتبر ابنه نصر الدين المتوفى سنة ١٢٩٢ وابنه الآخر حسن المتوفى سنة ١٣١٠ وكذلك قاوكه قونغ والمؤلف الكبير شمس الدين المذكوران آنفاً وكلهم من الساسة المسلمين المشهورين وتبعهم هاي تسوي (١٥١٤ - ١٥٨٧) الحاكم المسلم النزيه الفذ في تاريخ الصين .

وقد ازدهرت طرق المواصلات البرية بين العرب والصين ، وهي التي عرفت بطريق الحرير وأما طريق البحر ، فيتلخص فيما يلي : -

في الفترة الممتدة من أواخر القرن السابع إلى أواخر القرن الخامس عشر كانت موانىء الصين والأماكن المجاورة لها مثل قوانفتشو وتشيوانتشو وفوتشو ومينغتشو ويانفتشو مرتاداً لمسلمي مختلف الأقطار والعلماء والرحالة المسلمين الذين كانوا يتقاطرون على الصين بحراً ، وعندما كانت التجارة في أوج ازدهارها بلغ عدد التجار المسلمين الأجانب المقيمين في ميناء

صيني واحد عشرة آلاف شخص . أما التجار الصينيون بما فيهم المسلمون فقد كانوا قد سافروا إلى جنوب شرقي آسيا وسواحل المحيط الهندي للتجارة ، وفي القرن الثامن والتاسع الميلادي كان في بغداد سوق مخصص لبيع بضائع الصين مثل الحرير والأواني الصينية بينما كان في مدن تشانغآن وقوانفتشو ويانفتشو أسواق خاصة ببيع منتجات العرب والفرس ، وعندما كان الرحالة العربي ابن بطوطة يتحدث عن أحوال العرب في قوانفتشو قال : إن قوانفتشو « أكبر مدينة في العالم » ولها « أجمل سوق في الدنيا » وحين زيارته لتشيوانتشو اعتبرها « مركز التجارة العالمي » ، ويعرف من تدويناته أن للتجار العرب ولعاً بجمع الأواني الصينية والخزفية والأحجار الكريمة لنقلها إلى الهند واليمن ، وطوال الفترة التي تتراوح بين ثمانية وتسعة قرون كان الصينيون يستوردون من الخارج العطريات والسكر والجوخ والعاج وقرن الكركدن والمرجان واللؤلؤ والكهرمان بينما يصدرون إلى الخارج الحرير والحرير الرقيق والسندس الدمقس والأواني الخزفية والجمالكية والأواني الذهبية والفضية والمسك والأدوية الصينية الخ . . وفي هذه الفترة بالذات نقل المسلمون ما اخترعه الصينيون من صناعة الورق الإبرة المغنطيسية والبارود إلى الأقطار الاوربية[1] .

---

(١) المرجع السابق .

وفي قديم الزمان كان هناك كثير من الرحالة العرب زاروا الصين بل وخلفوا وراءهم مذكرات سياحية، من ذلك أن سليمان التاجر العربي قد أبحر في القرن التاسع إلى الصين عبر شبه قارة الهند والبنغال وباكستان وبعد عودته إلى بلده دوّن مذكراته السياحية سنة ٨٥١ م بعنوان (سلسلة التواريخ) ، وبعد وقت قصير من ذلك أضاف أبو حسن بعض المحتويات إلى الكتاب ، هذا هو أول كتاب تذكر فيه أحوال الصين استناداً الى مشاهدات العرب في الصين ، وفي القرن الرابع عشر غادر الرحالة العربي ابن بطوطة شمال افريقية الى الصين ، وقد ترك أثره في بكين وتشيوانتشو وقوانغتشو كما دون في مذكراته ما شاهده من أحوال التجار المسلمين الافريقيين في الصين وأحوال مجتمع الصين واقتصادها وعاداتها وتجارتها وصناعتها الحرفية ومناظرها الطبيعية وجغرافيتها . وجدير بالذكر أن البحار تشنغ المشهور في العالم هو من مسلمي مقاطعة يونان من قومية خوي . وقد سافر جدّه وأبوه إلى مكة لأداء فريضة الحج. وفي سنة ١٤٠٥ أمرته حكومة أسرة مينغ بالابحار على رأس أسطول ضخم يتألف من ٦٢ سفينة (يبلغ طول كل سفينة حوالي ١٥٠ متراً وعرضها حوالي ٦٠ متراً) ومن ٢٧,٨٠٠ بحار .

وفي فترة ٢٨ سنة من ١٤٠٥ ، ١٤٣٣ سبق لتشنغ هو أن قام بسبع رحلات زار خلالها ٣٥ من الأقطار

الأفروآسيوية . إنه أول من وصل إلى جنوب خط الإستواء على سواحل إفريقية الشرقية . وقد سبق تشنغ هو البحار كولومبس بنصف قرن ونيف ، علماً بأن أسطوله يفوق الأسطول الغربي حوالي ٢٠ مرة من حيث عدد سفنه ، ويعتبر ذلك حدثاً فريداً في تاريخ الإبحار[١].

* * *

إن تركستان الشرقية والمسلمين الصينيين هم صفحة من حضارتنا الإسلامية يجب أن نقرأها ، ونعمل على عودة دورها في حضارتنا ، وإن الشيوعيين المجرمين أعداء الإنسانية ، وسحقة حقوق الانسان ، قد حاولوا تمزيق هذه الصفحة ، فأغلقوا المساجد ، وحلوا الجمعيات الإسلامية ، وقضوا على تدريس القرآن ، ومنعوا الزواج الديني ، والختان والتطهير ، وأرغموا إخواننا المسلمين في الصين على تربية الخنازير. لكن سيبقى دورنا نحن المسلمين العرب ، والمسلمين الذي حماهم الله من الزحف الشيوعي : . . . يبقى دورنا في مقاومة هذا الطاعون ، بالعودة الصحيحة للإسلام ، وبالتمسك العملي بالاخوة الإسلامية ، فإن ذلك هو السبيل لعودتنا إلى مكانتنا الحضارية ، ولرفرفة راية الإسلام من جديد على تركستان

---

(١) المرجع السابق .

شرقيها وغربيها ، بل وعلى الأندلس ، وصقلية ورودس . .
وما ذلك على الله بعزيز .

مِنْ حَضَارَتِنَا
في الاتحاد السوفييتي

مِن حَضارَتنا
في الاتِّحاد السّوفيِّتي

من الظواهر التي تحتاج إلى البيان ـ أن جزءاً كبيراً من كتاب حضارتنا الإسلامية قد نسيه المسلمون ، وأهملوا قراءته ، حتى خيل لأكثرهم أن هذه الأجزاء لم تكن يوماً من كتاب هذه الحضارة . .

(بلى نحن كنا أهلها فأصابنا
جزاء من الرحمن حق وعادل

إن أكثر أجزاء ما يعرف اليوم باسم الاتحاد السوفيتي كانت أجزاء تابعة لدول إسلامية تدفع الجزية لسلاطين الأتراك التتار ، وتأتمر بأمرهم .

وإن ما هو إسلامي من أرض الاتحاد السوفييتي يقارب ربع مساحة الاتحاد السوفييتي وهي مساحة لا تقل عن نصف مساحة العالم العربي كله ، وهي أخصب أرض الاتحاد السوفييتي وأكثرها غنى في المناجم والمعادن .

وقد سقطت أول أرض إسلامية في يد الروس منذ أربعة قرون ، حين سقطت (قازان) عاصمة التتار ، ثم في عام ١٧٨٣ م احتل الروس شبه جزيرة القرم . ثم « كوغيزيا » في أوائل القرن الثامن عشر ، ثم جبال القفقاز في أوائل القرن التاسع عشر ، ثم التركستان بمدنها الشهيرة (بخارى وترمذ ومرو وسمرقند) في سنة ١٨٨١ م .

ويتكون المسلمون الذين عاشوا ـ ولا يزالون يعيشون وسيبقون بإذن الله ـ في هذه الأراضي الإسلامية من شعوب مختلفة اللغة ، أكثرها يتكلم اللغة التركية القديمة ، بلهجاتها المتعددة ، وهم شعوب الأوزبك ، والتتار ، والكنزاخ ، والأذربيجان ، والكريمنز ، والتركمان ، والبشكيز ، والفارافلباك والبلكار ، والقادتشاتن ، والفارانفيس[١] وأما الشعوب التي لا تتكلم اللغة التركية ، فهي شعوب التاكميك ، والتشيش ، والأنكوش ، والفابرديون ، والأجار ، والأبهازيون ، والأديفيون ، والشركس ، والداغستانيون والأودموت ، والمجرى ، والأوست ، والتشوفاش .

إن هؤلاء المسلمين الذين يخضعون للاحتلال السوفييتي يزيد عددهم عن خمسين مليوناً ، أكثرهم من السنّة

(١) انظر بتصرف ـ علي المنتصر الكتاني : المسلمون في الاتحاد السوفييتي (الرسالة اللبنانية) عدد ٣٧ صفر سنه ١٤٠٠ هـ

الأحناف ، وهم يمثلون الأكثرية الدينية الثانية ، بعد النصرانية التي يبدو أنها تداعت تماماً أمام المطارق الشيوعية .

ويعيش أكثر هذا العدد من المسلمين في الجمهوريات الإسلامية الشهيرة مثل أوزبكستان وكازاخستان ، وأذربيجان ، وطاجستان ، وتركمانيا ، وقرقيزيا ، ثم بشكيريا وتتاريا وأجاريا ، وداغستان ، بالإضافة إلى عدة ملايين بعثرهم النظام الشيوعي في الجمهوريات السوفييتية ، غير الإسلامية ، كمحاولة منه لتذويب هويتهم الإسلامية .

* * *

لقد دخل الإسلام إلى هذه البلاد ، التي أطلق عليها في تاريخنا الإسلامي ، بلاد ما وراء النهر ـ عبر حملات وفتوحات إسلامية متعددة ، امتدت منذ عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ الذي وصلت فيه الجيوش الإسلامية إلى أبواب كابل ، ودوت شهرتها وسمعتها ومبادئها فيما وراءها من بلاد ما وراء النهر ، وقد وصلت جيوش الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى عدة مدن على باب هذه المنطقة ، وهي مدن كابل وبلخ وهيرات ، .. ثم تتابعت الفتوحات على يد يعقوب بن ليث ، ومن ثم قام الغزنويون ، ثم الأتراك في موجتهم الأولى التيمورية التترية ، ثم في موجتهم الثانية .. حتى استقرت للإسلام قواعده ،

ورفعت رايته ، وأقامت بناء حضارته .

لقد قدمت هذه البلاد خيرة أئمة الحديث في الحضارة الإسلامية كلها ، وهم الإمام البخاري والإمام الترمذي ، والنسائي ، كما قدمت جمهرة عظيمة من علماء الدراسات القرآنية والفقه ، وعلم الكلام ، فضلاً عن علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والرياضيات . وقد اشتهر علماء هذه الأقطار بالتبحر العميق ، والمغامرة والتضحية في سبيل العلم ، وإن منهجهم الذي استقوه من الإسلام ، في مجال البحث ، ليعتبر بحق أعظم مناهج البحث في الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية .

ونحن لن نقف عند علم من الأعلام المشهورين كالبخاري أو الترمذي ، وإنما سنقف عند واحد من رجال الطبقة الثالثة ، وهو الإمام الحافظ أبو حاتم محمد بن حبّان البستي ، المتوفى سنة ٣٥٤ هـ . والذي ولي القضاء بسمرقند وغيرها من المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر ، والتي تخضع في عصرنا للاحتلال السوفييتي. لقد كان أبو حاتم هذا نموذجاً من جملة عشرات النماذج التي قدمتها هذه البلاد للحضارة الإسلامية ، وإنك لتشعر بنوع من الدهشة عندما تقرأ ما تركه هذا المحدث والفقيه من تراث وما كان يلتزم به من منهج علمي .

فإن من بين التراث الذي عرف لأبي حاتم البستي ، غير ما جهل أمره ، وغير ما طرح ، كتاب الصحابة في خمسة أجزاء ، وكتاب التابعين ، في اثني عشر جزءاً ، وكتاب أتباع التابعين في خمسة عشر جزءاً ، وكتاب تبع الأتباع في سبعة عشر جزءاً ، وكتاب تبّاع التبع في عشرين جزءاً ، وكتاب الفصل بين النقلة في عشرة أجزاء ، وكتاب العلل في أوهام أصحاب التواريخ في عشرة أجزاء ، وكتاب علل حديث الزهري في عشرين جزءاً ، وكتاب علل حديث مالك في عشرة أجزاء ، وكتاب علل مناقب أبي حنيفة ومثالبه في عشرة أجزاء وكتاب ما خالف الثوري فيه شعبة في ثلاثة أجزاء ، وكتاب ما انفرد فيه أهل المدينة من السنن في عشرة أجزاء ، وكتاب غرائب الأخبار في عشرين جزءاً[1] .

. . . وإني لن أستطرد في ذكر بقية مؤلفاته ، بل أكتفي بالقول : لقد أحصيت ما بقي مما عرف من تراثه ، فوجدته قد بلغ سبعين ومائة جزء تندرج تحت نحو عشرين مؤلفاً . . عدا ما لم يصلنا . . .

وما أبو حاتم إلا نموذج واحد قدمناه للدلالة على صفحة عظيمة رائعة من صفحات حضارتنا ، قدّر الله أن تقع تحت

(١) انظر روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للبستي بتحقيق محي الدين عبد الحميد (الترجمة) نشر بيروت .

سلطان الشيوعيين ، وأن يحاولوا بكل قواهم الطاغية ـ تمزيقها من كتاب حضارتنا الإسلامية ، ولكن هيهات ، فإن للإسلام يوماً قادماً يظهر فيه على الدين كله « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » .

صدق الله العظيم

مِن حَضَارتنا في الهِنْد

مِن حَضَارتنا في الهِنْد

دخل الإسلام الهند والسند أول ما دخل على يد محمد بن القاسم الثقفي المتوفى سنة ٩٨ هـ وذلك في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك .

وقد انتشر الإسلام بعد ذلك على يد التجار والزهاد والدعاة المخلصين انتشاراً محدوداً .

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت موجة الفتح الإسلامي الثانية للهند عندما حكم الهند عاهلون كبار من العرق التتري والمغولي ، على رأسهم إلب شكين التتري ، والد محمود الغزنوي ، الذي حكم مملكة تبدأ من ضفة نهر جيحون اليسرى ، إلى سلسلة جبال سليمان مغرب السند ، وجعل قاعدة ملكه في غزنة ، ثم يستولى على البنجاب ويبدأ في هذه النواحي اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة .

وعندما خلفه ابنه محمود الغزنوي ، الذي استمر في الحكم ثلاثين سنة ، قام بحملات على أنحاء من الهند اثنتي

عشرة مرة ، مما جعل فتح المسلمين للهند ، وسيطرتهم عليها ، أمراً ثابت الدعائم والأركان .

وقد حكم المسلمون الهند نحو ثمانية قرون منذ محمود الغزنوي ، وحتى دخول الانجليز إليها في القرن التاسع عشر الميلادي ، الثالث عشر الهجري .

وخلال هذه القرون الثمانية أسدى المسلمون لشبه القارة الهندية خدمات عظمى ، أولها وأعظمها ، هو نشر الإسلام الذي أصبح يدين به منهم نحو عشرين في المائة ، ولو كان من سياسة المسلمين إجبار الناس على الدخول في الإسلام ، لكان أولى البقاع بذلك هي الهند ، إذ كانت السيطرة فيها كاملة للمسلمين ، وكان أكثر أهل الهند وثنيين من الهندوس ، ومن البوذيين ..

وقد تعدى تأثير الإسلام في معتنقيه إلى من سواهم من غير معتنقيه ، فأثر في عقلية الشعب الهندوكي وفي ديانته نفسها ، ويقول الباحث الهندي المعروف « بانيكار » : « إن من الواضح أن تأثير الإسلام في الديانة الهندوكية كان عميقاً في العهد الإسلامي . . إن فكرة عبادة الله في الهنادك ، مدينة للإسلام ، إن قادة الفكر والدين في هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأن الإله واحد ، وهو يستحق العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة ،

وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة « بهاجتي » ودعوة « كبيرداس »[1] هذا من الناحية الدينية ، أما من الناحية الاجتماعية فكان تأثير الإسلام ـ كما يقول العلامة أبو الحسن الندوي ـ عظيماً إذ حمل المسلمون معهم فكرة المساواة الإنسانية التي لم يكن للهند عهد بها ، فلا نظام طبقات ، ولا منبوذ ، ولا نجس بالولادة ، ولا تقسيم وراثي للحرف والصناعات ، ولا جاهل يحرم عليه التعليم ، بل الناس جميعاً يعيشون معاً ، ويأكلون جميعاً ، ويتعلمون سواء ، ويختارون ما يشاءون من الحرف والصناعات .

ويدخل في أثر الإسلام الاجتماعي موقفه من المرأة ، من ناحية احترامها والاعتراف بحقوقها وكرامتها كعضو محترم من أعضاء الأسرة الانسانية ، ولعل عظمة موقف الإسلام من المرأة تتجلى في الهند إذا علمنا أن النساء في الهندوكية كنّ يحرقن أنفسهن بالنار ، بعد وفاة أزواجهن ، وهن لا يرين ولا يرى المجتمع لهن حقاً في الحياة بعد وفاة الأزواج ، وهذا الطقس الهندوكي ، يسمى « ستي » :

وقد أورد مؤرخ الهند الكبير المشهور بمؤلفاته السائرة وكتبه المقررة في الجامعات وهو المؤرخ (جادو سركار) عديداً

(١) نقلاً عن المسلمون في الهند ص ١٣ للسيد أبي الحسن الندوي .

من الأيادي الإسلامية على الهند ، منها باستثناء ما ذكرنا في الناحيتين الدينية والاجتماعية . . . إيجاد صلات للهند بالعالم الخارجي ، بعد أن كانت معزولة تماماً عن العالم ، ومنها إيجاد لغة رسمية إدارية وأسلوب نثري فني يصلح للكتابة العلمية والأدبية ، ومنها إيجاد وحدة سياسية واجتماعية في اللباس ومظاهر الحضارة ، خصوصاً في الطبقات الراقية ، وبدرجة ما في الطبقات الشعبية . ومنها تقدم لغات إقليمية في ظل الحكومة المركزية اعتماداً على تحقق السلام والأمن والرفاهية ومنها تجديدُ التجارة عن طريق البحار التي كانت قد توقفت منذ فترة طويلة ، وإنشاء بحرية للهند بعد أن كانت بعيدة عن هذا المجال .

أما فضل الحضارة الإسلامية في الهند على المسلمين أنفسهم ، فهي صفحة عظيمة لا يمكن حصر نواحي إبداعها في هذا المجال ، سواء فيما أنشأوه من آلاف المساجد البالغة الغاية في فن المعمار ، وسواء فيما أسهموا به في العلوم الإسلامية المختلفة .

ومن التراث الإسلامي العالمي الذي دبجه مسلمو الهند كتاب العباب الزاخر للإمام حسن بن محمد اللاهوري ، وكتاب كنز العمال للشيخ علي بن حسام الدين المتقي البرهانغوري ، وكتابُ مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل

ولطائف الأخبار ، ومنها الفتاوى الهندية في ستة مجلدات ، ومنها مسلم الثبوت في أصول الفقه لمحب الله بن عبد الشكور ، وكتاب كشاف اصطلاحات الفنون للشيخ محمد التهانوي ، وجامع العلوم ، وحجة الله البالغة للإمام ولي الله الدهلوي ، وهو من أعظم الكتب في الحضارة الإسلامية . ومنها تاج العروس في شرح القاموس للسيد مرتضى الزبيدي . . .

وما هذه إلا قطرة في بحر كبير ، وإلا فإن صفحة حضارتنا الإسلامية في الهند ، صفحة زاخرة في كل جيل وفي كل قرن ، ولا زالت هذه الحضارة موصولة بإذن الله ، حتى وإن نزل المسلمون من مستوى القيادة فإنهم قادرون على البقاء ـ بإذن الله ـ في مكان القيادة في الفكر والحضارة . . . لأنهم ـ لو تمسكوا بدينهم ـ جزءٌ من خير أمة أخرجت للناس . وهو ما نرجوه لهم ، ونتمنى أن يعينهم الله عليه . . .

دَولة السَّلاجِقَة ..
صورَة من حَضارتنا المزدهِرَة

دَولة السّلاجِقة ..
صورَة من حَضارتنا المزدهِرة

تمثل صفحة دولة السلاجقة في حضارتنا الإسلامية واحدة من أروع الصفحات وأكثرها إيجابية .

والطريف أن هذه الأسرة ترجع في نشأتها إلى تركستان التابعة لدولة الاحتلال السوفييتي ، ولظروف ما هاجرت هذه الأسرة بقيادة كبيرها سلجوق الذي تنسب الأسرة إليه .. وبين خراسان وبخارى وأصبهان تراوحت إقامتها حتى استقرت بمرو حيث هاجمها السلطان الغزنوي مسعود ولكنه هزم أمامها ، وأصبحت الخطبة تلقى بمرو باسم داود السلجوقي . . نجل سلجوق الكبير وكان هذا في سنة ٤٣٣ هـ .

ومن مرو انتشر سلطان السلاجقة إلى خوارزم ، وبدأ تاريخهم يظهر كقوة لها كيانها المستقل في العالم الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري .

وقد نجحوا في السيطرة على بلاد كثيرة كخراسان

وأصبهان وهمذان وبُخارى وامتد نفوذهم حتى العراق ، والتحموا بالدولة العباسية ، ثم أتيحت لهم فرصة ذهبية إذ استنصر بهم الخليفة العباسي « القائم » ضد ثائر شيعي يدعى « البساسيري » عجزت الخلافة العباسيـة عن مقاومتـه ، فأسرعوا إلى انتهاز الفرصة التاريخية ودخل زعيمهم طغرل بك بغداد منتصراً على البساسيرى سنة ٤٤٧ هـ وكان هذا العام حدّاً فاصلاً في تاريخ السلاجقة إذ اعتبر بداية عصر نفوذ السلاجقة ، وسيطرتهم على مصير الخلافة العباسية الكبرى .

امتاز السلاجقة الأتراك في معاملاتهم بالتدين ، وكانوا مظهراً للإنسان الفطري الذي هذبه الإسلام ، وإذا ما استثنينا صوراً قليلة تحتمها الطبيعة البشرية التي لا تخلو من بعض القصور ، فإن هؤلاء السادة كانوا أنموذجاً طيباً حتى في معاملتهم للخليفة العباسي الذي حفظوا له عرشه ، إنهم لم يكونوا كالذين انتصر بهم المعتصم ، ولم يكونوا كالبويهيين حينما سيطروا على الخلافة وأذلوا كبرياء الخلفاء . . أبداً لقد احترموا الخلفاء وأجلّوهم ، وكان لهم كذلك فضل كبير في رفع راية الإسلام ، وفي مد عمر الخلافة العباسية أكثر من قرنين من الزمان ، كما بدأوا في مرحلة جديدة من التوسع الإسلامي في اتجاه آسيا الصغرى ، ويقال إن هذا التوسع الإسلامي كان أحد أسباب قيام الحروب الصليبية .

ومن الظواهر المتعلقة بسياسة هؤلاء القوم الاجتماعية والفكرية .. إلغاء أشهر ملوكهم « إلب أرسلان » لنظام التجسس ولجوء أحد ملوكهم «نظام الملك» إلى نظام الاقطاع بإعطاء الشخصيات السلجوقية والشخصيات الأخرى الكبرى اقطاعات أو « أتابكيات » لحسابها الخاص . ومن الظواهر كذلك الحملات الجهادية شبه المنتظمة التي كانت خير علاج للفوضى الداخلية .

كذلك من الظواهر صراع السلاجقة المستمر ضد حركات الإسماعيلية ونجاحهم في تقليم أظافرهم .

وبعد صفحة تاريخية رائعة من صفحات الحضارة الإسلامية امتدت بين سنوات ٤٣٣ - ٦١٩ قدر للسلاجقة أن يأفل نجمهم وأن تغرب شمسهم ، بعد أن حكم منهم واحد وثلاثون زعيماً سلجوقياً ، وبعد أن قدموا للخلافة الإسلامية الكبرى أجل الخدمات ، وحموها من كثير من عثرات السقوط وقدموا لحضارة الإسلام يداً من أروع ما قدمت الدول الإسلامية من أياد بيضاء ..

لقد ازدهرت في عهد السلاجقة جوانب الحضارة المختلفة ، فعلى الرغم من أنهم دولة جهاد إلا أن العلوم والآداب فازت بنصيب وافر من اهتمامهم .

كما أن نواحي النشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة

ورعي وتجارة وتنظيم الطرق وتأمين المسالك ، وتوفير الحياة الكريمة . . . كل هذا اهتم به السلاجقة أيما اهتمام ، فضلاً عن اهتمامهم الدؤوب بشئون الجيش وتطوير السلاح. بيد أن السلاجقة وقعوا ، وهم يسيرون في الطريق، في أخطاء ظنوها خيراً ، فانقلبت على دولتهم شراً .

لقد لجأ السلاجقة - كما أسلفنا - إلى نظام الإقطاعات ، وأسندوا معظمها إلى شخصيات سلجوقية ، وقد حسبوا أن هذا من شأنه أن يشغل السلاجقة عن التفكير في الحكم ، وأن يرضوا بالبعد عن السلطة ، لكن الإقطاعيين السلاجقة سرعان ما حاول كل منهم أن يكون لنفسه من إقطاعاته إمارات صغيرة. حاولت كل واحدة منها الانفصال عن السلطة ، وهو عكس ما كان يهدف إليه السلاجقة الحكام .

وقد أدى هذا إلى تفكك وحدة السلاجقة وإلى انهاك قوى السلطة السياسية الحاكمة ، وإلى توزيع النفوذ الحقيقي في الدولة بين عديد من الأمراء . كما أن هذا الخطأ أدى إلى عدول السلاجقة عن طريقة اختيار زعمائهم القديمة التي كانت تعتمد على الكفاية والمقدرة ، فأصبحت الزعامة تقليدية دورية ، خوفاً من كثرة تنازع أمراء الإقطاعات عليها .

ومن المضاعفات كذلك تهاون السلاجقة - في ظل تفككهم - أمام حركات التمرد الباطنية ، ولا سيما أمام الحركة

الاسماعيلية بزعامة قائدها الحسن الصباح وقد قدر لهذه الحركة أن تستنفد طاقة كبرى من طاقات السلاجقة التي كان في الإمكان استخدامها في القضاء على حركات التفكك التي أصيبت بها الدولة أو الزعامة السلجوقية للخلافة العباسية .

لكن ذلك كلّه لا يغمط السلاجقة حقهم، فقد دافعوا عن العالم الإسلامي قرنين من الزمان ، وكانت لهم أياد حضارية كثيرة ومتنوعة . . فصفحتهم في كتاب الحضارة الإسلامية صفحة من أفضل الصفحات ، ومن أكثرها أصالة والتزاماً بالكتاب الكريم والسنّة الشريفة فجزاهم الله عن خلافة الإسلام وتاريخ الإسلام خير الجزاء .

صُوَرٌ مِن حضَارتنا فى المغربْ

صور من حضارتنا في المغرب

دخل المغرب العربي في الإسلام بعد فترة من الفتح متدت نحو سبعين سنة ، فقد بدأ الفتح منذ سنة ٢٣ هـ ، واستمر حتى عام ٩٠ هـ فهو ـ بهذا ـ أطول فتح إسلامي في التاريخ .

وقد برز في فترة الفتح هذه أبطال مسلمون ضربوا أروع الأمثال في الاخلاص لدينهم والأناة في نشره ، والاعتماد على فتح أقفال القلوب والعقول وليس لمجرد التسلط والاستغلال ، ومن هؤلاء عقبة بن نافع باني القيروان ، وفاتح تونس ، وأبو المهاجر دينار فاتح الجزائر والذي أسلم على يديه أحد فرعي البربر الكبيرين ، وهم البرانس ، وحسان بن النعمان الذي أخضع الفرع البربري الآخر للإسلام ، وهو فرع البتر ، وموسى بن نصير الذي كان له فضل كبير في اتمام تحضير المغرب إسلامياً وعربياً . . بل والاستعانة بهؤلاء البربر أنفسهم ، وهم

حديثو عهد بالإسلام في فتح الأندلس - ٩٢ هـ ، بقيادة مولاه البربري طارق بن زياد !!

إنّ هذا المغرب الإسلامي ، ما إن استقر الإسلام في وجدانه - حتى بدأ ينصهر في بوتقة الحضارة الإسلامية ، ويشكل بمدنه الكبرى التي ظهرتْ في التاريخ حافلة بالحياة والحركة صفحة رائعة من صفحات حضارتنا الإسلامية .

ففي القرن الثاني الهجري الذي أعقب فترة الفتح مباشرة تألقت مدن مغربية كثيرة ، كان من أبرزها (تاهرت) عاصمة بني رستم في الجزائر والمهدية عاصمة الأغالبة في تونس ، وفاس عاصمة الأدارسة في المغرب الأقصى ، أما في القرن الرابع الهجري ، ثم الخامس . . فقد اتسعت دائرة المراكز الحضارية ، وتألقت بعضها تألقاً عظيماً حتى أصبحت مدناً شبه عالمية . . . وعلى رأس هذه المدن تقف (القيروان) عاصمة بني زيري ، وبجاية عاصمة بني حماد ، ومراكش عاصمة المرابطين .

ومنذ القرن الرابع الهجري الآنف الذكر ، والعربية هي الغالبة على اللسان المغربي ، والمشرق يبدو وكأنه قد أعطى المغرب ما يكفيه ليبرز ذاته في إطار الإسلام ، وفي وعاء العربية ، ويحكي المؤرخون أنه بدءاً من هذا القرن صار المغاربة يزاحمون العرب في لغة الضاد ، وأصبح علماء

البربر يناظرون فقهاء العرب في قواعد الأصول وتفاريع الفقه ومبادىء علم الكلام . وقريباً من منتصف القرن الخامس الهجري حدث ما هو معروف عن زحف القبائل العربية من بني هلال وبني سليم على المغرب . . وقد أدى هذا إلى تعريب المغرب تعريباً شبه كامل .

ومن الجدير بالذكر هنا أن (المسجد) قام بدور كبير في تعريب المغرب وتثقيفه ، وقد عرف المغاربة ملحقاً بالمسجد أطلق عليه (المسيد) وكان هذا الملحق أو (المسيد) مفرداً للناحية التعليمية . . أي أن المسجد في المغرب كان مسجداً ومدرسة في الوقت نفسه . كما عرف المغاربة الكتاتيب ، وبالطبع فإنهم نقلوها عن المشرق ، وإن كانوا في بعض الأحيان أطلقوا عليها لقباً خاصاً هو (الشريعة) ، وغالباً ما تكون هذه الشريعة مدرسة في البادية . . ومن المحتمل أن تكون الشريعة هي المدرسة البدوية في مقابل (المسيد) الذي هو المدرسة الحضرية .

* * *

والغريب أننا نعجب حين نعلم أنه في المدن المغربية الكبرى في فترة القرون عرف لون من التعليم الجامعي (كمعهد سيدي التواتي) في بجاية الذي كانت تدرس فيه العلوم الفلكية وغيرها . وفي هذه الجامعات عرفت منزلة

الاختصاص ، بل وقدمت بعض الأطروحات ، وتوفرت المكتبات العامة ، بل وعرف نظام الأساتذة الزائرين والمحاضرين . فخلال القرن الخامس الهجري ـ هذا ـ وفي معهد سيدي التواتي قام بإلقاء المحاضرات علماء من اسبانيا وإفريقية والشرق ، وقد ارتحل إلى الجزائر ابن حمديس الصقلي الشاعر . وعاش في كنف حكامها من بني حماد الزيريين .

كما أنه خلال هذا العصر غصت الحواضر كبجاية والمهدية وفاس والقلعة وأشير وطبنه والزاب والمسيلة ، بمئات العلماء من الفقهاء والنحاة والمفسرين والأدباء والأطباء والرياضيين وغيرهم .

ويدل على كثافة أعداد العلماء ما أورده (أبو العباس الغبريني) عن علماء بجاية وحدهم في قرن واحد ، وذلك في كتابه المعروف (عنوان الدراية في علماء المائة السابعة ببجاية) . . والغبريني نفسه ـ بعدما أورده ـ يعتذر بقوله « وقد بقي خلق كثير من أهل المائة السادسة ولكن شرط الكتاب (أي منهجيته) منع من ذكرهم . . ثم يورد الغبريني نقلاً عن أبي علي المسيلي (من المسيلة) يقول فيه : « لقد أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتياً ما منهم من يعرفني » فإذا كان المفتون في جيل واحد تسعين ، فكم

يكون المحدثون والنحاة والأدباء وغيرهم في هذا البلد الواحد !!

وجدير بالذكر أنه مع أن المذهب المالكي سيطر على المغرب ، كما سيطر على الأندلس - إلا أن المغاربة لم يكونوا - في كثير من الأحايين - مجرّد متبعين ، بل ظهر منهم طائفة مجتهدون من أعلام الفقه كابن أشرس والكتامي والبرادعي وغيرهم ممن أوردهم ابن فرحون صاحب كتاب (الديباج المذهب في أعيان المذهب) .

* * *

وخلال القرون التالية سواء في عصر بني عبد الواد في الجزائر ، ومعاصريهم من بني حفص في تونس ، وبني مرين في المغرب الأقصى . . ظلت الحركة العلمية نشطة تستمد قوتها من تلك الدول العظمى التي سيطرت على المغرب في القرنين الماضيين ، وهم المرابطون والموحدون . . . وقد ظهر دور جديد للمغرب على مسرح حضارتنا ، وهو دور ذو شقين . . شق يتعلق بواجبه في مناصرة الأندلس من جانب ، وشق في إفساح المجال للاجئي الأندلس والافادة منهم - حضارياً - من جانب آخر . مما جعل الأثر الأندلسيّ يبدو قوياً خلال هذه القرون على طابع الحضارة الاسلامية

في المغرب . . . بل جعل مدناً مغربية بأكملها تبدو وكأنها مدن أندلسية .

* * *

إن هذه بإيجاز بعض خيوط جمعناها من نسيج الحضارة المغربية الإسلامية، وإنه لنسيج إسلامي فيه من أصالة العروبة المسلمة الكثير، وفيه من عبق البيئة المغربية والأندلسية لون ورواء، وإنه لنسيج يحتاج الى مزيد من المعايشة والدراسة والادكار .

القيرَوان : صُورة مِن حضارتنا المزدهرة

القيروان: صورة من حضارتنا المزدهرة

تمثل مدينة القيروان بتونس صفحة من صفحات الحضارة الإسلامية التي تستحق العناية والدراسة، والحق أن أبناء إفريقية ـ وهذا هو الاسم الذي كان يطلق على تونس حتى العصر الحديث ـ لم يقصروا في العناية بحضارة هذه المدينة وتاريخها.

بيد أن ضرورة ربط المشرق بالمغرب الإسلاميين توجب علينا ـ نحن أبناء المشرق ـ التعرف على هذه الصفحات التي تمثل ـ شرّقت أو غرّبت ـ صفحة من كتاب حضارتنا الإسلامية الخصبة المعطاءة.

وقد بنيت القيروان ـ واسمها يعني معسكر الجند ـ سنة خمسين هجرية، واستمرّ بناؤها مدة خمس سنوات، وكان ذلك على يد القائد المسلم عقبة بن نافع أثناء ولايته الأولى على إفريقية، حين رأى عقبة بثاقب بصره أن (عدم الثبات) الذي يمتاز به فتح المسلمين للمغرب، يرجع إلى

أنهم يفتقدون (قاعدة) متقدمة ، يستطيعون الاعتماد عليها أثناء امتدادهم في أعماق إفريقية والمغرب . . وعلى هذا الأساس وانطلاقاً من هذا التخطيط اختطّ عقبة مدينة القيروان في موقع يناسب الوظيفة الحضارية التي شيدت من أجلها، فجاءت القيروان بعيدة عن الساحل خوفاً من غارات البيزنطيين ، وبعيدة عن أعماق المغرب بنجوده وصحاريه خوفاً من غارات البربر .

وكان عقبة بن نافع يعرف المنطقة معرفة جيدة ، فقد عاش وقاتل وتنقل وقاد البعوث ، واتصل بالناس ، الأصدقاء منهم والخصوم . كان يدرك أن القتال في شمال إفريقية لا يمكن ان يعتمد على قاعدة أساسها مصر أو حتى برقة ، إذ تصبح عندها خطوط المواصلات طويلة ، ويتعذر على عقبة أو غيره من القواد أن يزوّدوا بحاجتهم من الرجال والمال والمؤن، وأدرك عقبة بثاقب نظره أن قاعدة القتال يجب أن تنقل إلى الأراضي الافريقية ، لكن عقبة كان يعرف أن الدولة الإسلامية الجديدة لم تكن دولة بحرية بالدرجة الأولى مع أن المسلمين هزموا الروم (بحرياً) في موقعة ذات الصواري قبل بناء القيروان، لكن مع ذلك كان الروم وهم أصحاب أسطول كبير يستطيعون دوماً إزعاج البحرية الإسلامية ، ومن هنا نجد عقبة بن نافع يختار مدينة القيروان ليقيم فيه قاعدة حربية وفق الشروط التخطيطية

التي ذكرناها ، ثم يقوم عقبة بتمصير هذه المدينة العظيمة التي لا تزال قائمة إلى الآن[1] .

ونحن عندما ندرس موقع هذه المدينة حالياً ، ونعود إلى شيء من تاريخ أسلافها قبل إنشاء عقبة لها ، يمكننا أن نلاحظ الأمور التالية بشأنها :

١ ـ إنها تقوم في مركز تقاطع خطوط وطرق من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب .

٢ ـ إنها تقع في مكان خصب وفيه ماء . حتى لقد جاء في ابن عبد الحكم عند ذكرها أنها كانت « وادياً كثير الشجر تأوي إليه السباع والوحوش والهوام » ولعل هذا كان على مقربة منها .

٣ ـ إن هذه المنطقة ، على ما يحدثنا الجغرافيون العرب ، كانت كثيرة الأمصار والقلاع والحصون أيام البيزنطيين ، ولعل حصن قمونية أهمل فتخرّب ، لكن ذلك لم يحجب عقبة عن معرفة قيمتها في التخطيط العسكري والرؤية الحضارية .

لقد كان اختيار موقع القيروان موفقاً بل بلغ من التوفيق في اختياره أن ولاة المغرب ومن خلفهم من الحكام المستقلين

(١) صفحات مغربية نقولا زيادة ص ٢٠ .

أقاموا بها زمناً طويلاً ، ولم ينتقلوا عنها إلا حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة إلى ذلك ، كما كان موقعها الحربي معروفاً ملحوظ الأهمية ، إذْ كان الحاكم الذي يتخذ هذا الموضع مركزاً لأعماله يستطيع أن يرى العدو من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر . وإذا أراد أن يطاردهم إلى هضابهم وجد الطرق مفتحة أمامه ، إذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول إلى أعالي الهضاب إذا كانت لديه القوة الكافية لذلك ، كذلك كان فرسانه الخفاف قديرين على أن يقوموا بهذا الموضوع من أعمال الاستطلاع وبالغارات السريعة والحراسة الدائمة[1] وعلى نسق (المدينة الإسلامية) التي لا بد أن يتحقق لها إطار الهندسة الإسلامية ، في مرافقها العامة الأساسية التي تميزها عن بقية مدن العالم .. على هذا النسق المستمد من طبيعة الحضارة الاسلامية التي كانت مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام نموذجها الأول ـ اختط عقبة فور شروعه في بناء القيروان المسجد الجامع ، ثم دار الإمارة ، ثم بيوت الجند ، ثم دار القضاء ، وما إلى ذلك من مرافق أساسية .

وحقيقة أن القيروان تطورت ونمت فيما بعد . لكن عقبة أنفق الكثير من المال والوقت ، فقد أرادها أن يكون

---

(١) المكان السابق .

فيها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم في مأمن من ثورة أو انقضاض ، وقد بقي أثر تخطيط عقبة للقيروان مستمراً في تاريخها كله ، وهذا لا يعني إغفالاً للجهود التي بذلت في عصور القيروان التالية ،وبخاصة في ذلك العصر الذي تألقت فيه ، وأصبحت حاضرة العلم والثقافة الأولى في المغرب الإسلامي كله ، وهو عصر بني زيري الذين ورثوا الفاطميين بعد أن نزحوا إلى مصر سنة ٣٦٠ هـ .

وقد استطاع أحد الأمراء من بني زيري ، وهو المعز بن باديس الذي حكم تونس على امتداد النصف الأول للقرن الخامس الهجري كله تقريباً . استطاع هذا الأمير أن يعيد المذهب السني إلى مكانته ، ويقضي على البدع والخرافات التي خلفها الفاطميون ، وتحولت القيروان في عهده إلى مدينة من المدن الكبرى التي يؤمها العلماء والشعراء والنبغاء ، والتي يجد فيها كل هؤلاء الأمن والرعاية والتشجيع ، على غرار دمشق وبغداد والقاهرة وبجاية وقرطبة وإشبيلية وغيرها من الحواضر الكبرى في ذلك العصر .

وقد ظل حالها كذلك حتى دهمتها قبائل بني هلال وبني رياح وبني سليم بتشجيع من المستنصر الفاطمي سنة ٤٣٩ هـ فانطوت ـ لفترة قصيرة ـ صفحة القيروان في الحضارة

الإسلامية ، إلى أن عادت ـ مرة أخرى ـ تؤدي دورها كواحدة من المدن الإسلامية ذات التاريخ الطويل والعطاء الحضاري الخصب .

لقد قام المسجد الجامع المعروف عند التونسيين باسم (الجامع الأعظم) والمنسوب إلى الصحابي الجليل عقبة ابن نافع بدور أساسي في تحضير القيروان أيام مجدها ، ولازال ، وقد انضم إليه جامع الزيتونة الذي بني سنة (٩١ هـ) على يد (اسماعيل بن عبيد الأنصاري) وقد انتشرت في القيروان المساجد ذات الوظيفة التعليمية كما انتشرت المدارس والكتاتيب ، وقد اشتهر من العلماء والفقهاء في عصر القيروان الزاهر أبو عمران الفاسي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ كما اشتهر أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الخولاني المتوفى سنة ٤٣٥ والشيخ (أبو علي حسن بن خلدون البلوي) والشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن محمد الطرابلسي وعبد الرزاق القيرواني النحوي ، وأبو جعفر القزاز القيرواني النحوي، وعلي بن عبد الجبار سلامة بن عيذون الهذلي اللغوي ، وعبد العزيز بن محمد القرعي الطارقي الأديب ، وابن زنجي الكاتب ، وعبد الكريم النهشلي كاتب المعز بن باديس ، وتلميذه المعروف ابن رشيق صاحب العمدة .

وثمة مئات غير هؤلاء في سائر المجالات ممن لا يمكن

حصرهم ، ظهروا في حياة القيروان ، وكانوا دررها اللامعة ، الذين جعلوا صفحتها في تاريخنا الإسلامي واحدة من أروع الصفحات ، ونموذجاً من أقوى الدلائل على عمق اسهام (المدينة) المغربية الإسلامية في حضارتنا الطيبة الخصبة .

دَولَة بَني حَمَّاد
صورَة مُزدَهِرة مِن حَضَارتنَا

دَولَـة بَـنِي حَـمَّاد
صورَة مُزدَهِـرة مِن حَضَارتنَا

كان رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦١ هـ ، واستخلافه بلكين بن زيري الصنهاجي والياً على المغرب الأوسط (الجزائر) وإفريقية (تونس) ايذاناً باستقلال البربر بحكم أنفسهم لأول مرة ـ في العهد الإسلامي ـ وإيذاناً بسيادة صنهاجة ـ احدى القبائل البربرية الكبرى ـ على هذا الجزء الكبير من المغرب العربي ، ولم يمض نصف قرن حتى كان أحد أبناء بلكين (حماد بن بلكين بن زيري) ينفرد بمعظم أرض الجزائر الحديثة ، ويكون فيها دولة مستقلة يحكمها هو وأولاده من بعده عرفت باسم الدولة الحمادية .

* * *

ولقد كانت السنوات الأولى من القرن الخامس الهجري « الحادي عشر الميلادي » مسرحاً لمعارك طويلة دارت بين بني زيري الذين يحكمون تونس ، وبني حماد الذين أحبوا

تكوين امارة مستقلة بهم في الجزائر . بعد أن كان بنو زيري يحكمون تونس والجزائر معاً . وعبر حروب طويلة خاضها حماد مؤسس الدولة مع بني زيري من ناحية ، ومع زناتة في المغرب الأقصى من ناحية اخرى ، عبر هذه الحروب استطاع حماد بمساعدة ظروف كثيرة منها عنصر المصادفة . . أن يستقل بجزء كبير من أرض الجزائر الإسلامية وكان ذلك سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٦) م ، حين نجح في عقد صلح مع المعز بن باديس حاكم تونس - (٤٠٥ - ٤٥٤ م) وأصبح الرجل الأول في الجزائر .

ولقد عاشت هذه الدولة قريباً من مائة وأربعين سنة وتعاور الحكم فيها تسعة من الملوك كان من أشهرهم حماد نفسه (٤٠٨ - ٤١٩ هـ) والقائد بن حماد (٤٠٨ - ٤٤٦ هـ) والناصر بن علناس (٤٥٤ - ٤٨١ هـ) والمنصور بن الناصر (٤٨١ - ٤٩٨ هـ) .

إلى أن وصل الحكم ليحيى بن العزيز الذي حكم ما بين (٥١٥ - ٥٤٧ هـ) فكان سلوكه ومجموعة ظروف أخرى من أسباب سقوط الدولة على يد الموحدين سنة ٥٤٧ هـ ١١٥٢ م .

* * *

لقد وجد في المدن الحمادية الكبرى كبجاية والقلعة

والجزائر وتاهرت وبونة علماء أجلاء يقصدهم طالبو العلم من الأندلس ومن البلاد المغربية الأخرى . وكانت لبعضهم شهرة على امتداد العالم الإسلامي ، كما أن بعضاً من هؤلاء قد رحلوا إلى بلدان أخرى في العالم الإسلامي ، وكانت لهم شهرة بها .

ومن أبرز هؤلاء العلماء المشهورين مروان بن علي الأسدي المعروف بالبوني ـ نسبة إلى مدينة بونة ـ التي استقر بها بعد رحلة طويلة في العالم الاسلامي ، وعقد بها مجالس علمه ، ووفد إليه طالبو العلم من سائر بلاد الأندلس والمغرب ، وقد حدث عنه أبو القاسم حاتم وأبو عمرو بن الحذاء ، وكان معروفاً بالصلاح والتقوى والعفاف ، وقد ألف كتاباً في شرح الموطأ ، كما كان فذاً في الحديث أيضاً ، ومات في حدود سنة ٤٤٠ هـ[١] .

ومن هؤلاء العلماء ، موسى بن حماد الصنهاجي الذي كان فقيها حافظا من جملة القضاة ، وكان راوية لأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي وغيره ، وقد توفي سنة ٥٣٥ بمراكش[٢] ومن هؤلاء موسى بن حجاج بن أبي

(١) الديباج المذهب لابن فرحون ص ٣٤٥ ، وترتيب المدارك للقاضي عياض ٣ / ٧١٩ ، والصلة لابن بشكوال ، طبع الدار المصرية للتأليف ١٩٦٦ القسم الثاني ٦١٦ ، وجذوة المقتبس للحميدي ترجمة رقم ٧٩٨ ، وبغية الملتمس للضبي ، تصدير مختصه المثنى ص ٤٤٦

(٢) الصلة ٢ / ٦١٤

بكر الأشيري من أشير، وكانت إقامته بتدلس من عمل بجاية وعنى بالرواية ثم انتقل إلى مدينة الجزائر - من عمل بجاية[1] وأمّ بها صلاة الفريضة، وحدث وأخذ عنه إلى أن توفي بتدلس سنة ٥٨٩ هـ، ومن هؤلاء الفقهاء ابراهيم بن حماد من أهل قلعة بني حماد، وكان راوية لأبي علي الصرفي، وحدث عنه ابن الرمامة[2].

ومن هؤلاء حجاج بن يوسف الهواري من ناحية بجاية ترك ذكراً وعلماً إلى أن مات سنة ٥٧٢[3]، وأبو بكر بن عتيق من أهل القلعة، المتوفى سنة ٥٥٣ هـ[4] وعبد الله ابن محمد بن عيسى التاهرتي الذي ولع بالرواية ومعرفة الحديث[5] وعبد الله بن يحيى العبدري من أهل القلعة، وكان محدثاً وفقيهاً بجامع القلعة إلى أن توفي سنة ٥١٩ هـ[6] ومن هؤلاء البارزين محمد بن عيسى بن محمد الغزاوي تلميذ بجاية الذي عنى بالمسائل[7] وسعيد بن

---

(١) التكملة لابن الأبار ٢ / ٦٩٠ (مكتبة الخانجي ١٩٥٦).
(٢) التكملة ١ / ١٧٤.
(٣) التكملة ١ / ٢٧٩.
(٤) التكملة ٢ / ٤٤٨
(٥) التكملة ٢ / ٧١٩.
(٦) التكملة ٢ / ١٥.
(٧) ترتيب المدارك ص ٣ / ٤٤٤.

عثمان وأحمد بن واضح اللذان وليا قضاء بجاية والفتوى بها[1] .

ومن هؤلاء كذلك ، أحمد بن خصيب بن أحمد الأنصاري القرطبي الأصل الذي استقر آخر عمره بالقلعة الحمادية ، وتوفي بها في حدود سنة ٤٥٠ هـ وقد أخذ عن أبي الحسن علي بن أبي طالب أكثر روايته وتواليفه ـ كما أخذ عن غيره[2] ومن فقهاء الدولة عبد الله بن حمود بن هلوب ابن داود بن سليمان ، أصله من تاهرت وكان له شعر ديني في مناسك الحج[3] .

ومن الفقهاء الذين أقاموا بالدولة وعاشوا في ظلالها ، عمر بن عبد الله بن زاهر ، الذي استوطن بونة ، وروى عن شيوخ عصره كأبي عمران الفاسي الفقيه ، وأبي عبد الملك مروان البوني ـ الذي تحدثنا عنه ـ وأبي القاسم اسماعيل بن يربوع السبتي وغيرهم ، وقد توفي بغد سنة ٤٤٠ هـ[4] . ومنهم أبو عبدالله بن الكلاعي ، الذي تتلمذ عليه أبو بكر بن العربي قاضي إشبيلية[5] . وأبو بكر محمد

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤٥ .

(٢) الصلة لابن بشكوال ١ / ٥٩ .

(٤) الصلة ١ / ٢٩٩

(٥) الصلة ٢ / ٣٩٨

(٦) نفح الطيب للمقري ٢ / ٢٣٤

بن الحسين المتوفى سنة ٥٣٧ هـ ، الذي لجأ إلى بجاية واستوطنها ، هاربا من صاحب المغرب ـ ابن تاشفين ـ وكان محدثاً ببجاية ، وله بها تلاميذ يأخذون عنه[١] . ومنهم أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزاز المولود بتاهرت ، وقد حدث بكتاب صريح السنة للطبري ، وفضائل الجهاد ، والتبصير عن الدينوري عن الطبري[٢] .

ومن أبرز المتخصصين في العلوم الدينية بفروعها المختلفة « يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل النحوي » ـ الذي كان شاعراً دينياً كذلك ـ وكان بمثابة مدرسة لها اتجاهها في النظر إلى الأمور الدينية ، ونجح في تكوين تلاميذ ينشرون اتجاهه في المغرب ، وكان اتجاهه امتداداً للامام الغزالي الذي كانت كتبه تحرق في دولة المرابطين بعد يوسف بن تاشفين . . فقد ركز على علوم العقيدة والتصوف أكثر من التركيز على الفروع ـ الذي كان اتجاه المرابطين الرسمي ـ وكان يقول عن الإحياء : « وددت أني لم أنظر في عمري سواه » ، وكان يلقي دروسه في القلعة وتخرج على يديه بها القاضي أبو عمران موسى الصنهاجي وأبو عبد الله محمد بن الدماسة وأبو بكر بن مخلوف ومحمد بن مخلوف وغيرهم[٣] .

---

(١) نفح الطيب ٢ / ٣٥٤ ، ٣٣٥ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدي ص ١٣٢ .

(٣) انظر البستان لابن مريم ص ٢٩٩ ، وما بعدها

بيد أن من الملاحظ أن كثيراً من هؤلاء كانوا مقلين في الانتاج الفكري المدوّن ، يعتمدون على تكوين التلاميذ ، والتعليم الشفهي ، ويكتفي كثير منهم بالرواية عن غيره ، ولعل هذا هو الذي جعل من الصعوبة بمكان تتبع كل أبعاد وصور العلوم النقلية والنظرية عموماً - في الحقبة التي عاشتها الدولة وإن كنا لم نعدم - كما ذكرنا - كتباً لبعضهم .

* * *

لقد تصدرت علوم اللغة والأدب مجالات النشاط العقلي في دولة الحماديين . وكان الأدب - نثراً وشعراً - مناط عناية واحترام كل الطبقات ، وقد اشتغلوا جميعاً به : الملوك والوزراء ورجال الدولة والعلماء والطبقتان العليا والسفلى[1] وكانت العربية الفصحى المصقلة بلسان العرب النازحين لغة الثقافة والفكر ، وإن كان من الضروري أن تكون اللهجات الإقليمية قد أكسبتها لوناً محلياً ذا طابع خاص[2] ، أما البربرية فلم تزل تماماً من الوجود ، بل بقيت معروفة متداولة ، ويبدو أن جزءاً كبيراً منها كان يسيطر على لغة البلاط[3] . الذي لم ينس أنه بلاط بربري يحكم شعباً

---

(١) بلاغة العرب للكعاك ص ٣١ .

(٢) انظر العربية لبوهان فلك ص ١٦٧ .

(٣) البربر للكعاك ص ١٠٢

وبلاداً بربرية ، ومن المؤكد أنها لعبت دوراً في الحياة الاجتماعية ، إذ كانت الوعاء الذي حمل الأدب العامي ، الذي كان هذا العصر من عصوره الذهبية بالمغرب والأندلس[1] لكن ـ مع ذلك ـ نجحت العربية في أن تكون اللغة الحية القوية السهلة المطواعة للتعبير عن الفكر العلمي ، وفرضت نفسها بحيث أصبحت لغة السياسة والعلوم والآداب[2] .

ومن كتاب الحماديين وشعرائهم علي بن أبي الرجال المكنى بأبي الحسن من أشراف مدينة تاهرت ، وإن كان قد نسب إلى القيروان لأنه عاش مدة في بلاط المعزّ ومات بتونس سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م)[3] ، ومثله ابن الربيب أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد التميمي التيهرتي ، كان أديباً متقدماً خبيراً باللغة ناثراً شاعراً ، لكنه رحل إلى القيروان ومات بها سنة ٤٣٠ هـ ، وكان يلقب بالقاضي التيهرتي[4] ، لكنه ـ كسابقه ـ غلبت عليه النسبة القيروانية[5] .

---

(١) بلاغة العرب للكعاك ص ٣١ .

(٢) انظر فيليب حتي (مطول) ٢ / ٣٩٢ .

(٣) المغرب العربي لبونار ص ٢٩٨ .

(٤) المغرب العربي لبونار ص ٣٠٣

(٥) المرجع السابق ص ٣٨٢

ومن أعلام الجزائر المشهورين في هذا العصر يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل المعروف بابن النحوي من قلعة بني حماد ، وكان عارفاً بأصول الدين والفقه ، ويميل إلى النظر والاجتهاد ، وقد ذكرناه مع الأدباء هنا ، لأن له شعراً دينياً كثيراً ، وهو مؤلف قصيدة

اشتدى أزمة تنفرجى
قد آذن ليلك بالبلج

وله غيرها كثير من الشعر الديني[1] .

ويعتبر يوسف الورجلاني المولود بورقلة سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) من أبرز أدباء العهد الحمادي ، وقد أخذ العلم عن شيوخ بلده ، وارتحل إلى الأندلس والمشرق وأخذ عن أعلامهما ، ثم عاد إلى بلده واعتكف نحو سبعة أعوام ، يكتب بمنزله وقد لقب بالجاحظ لكثرة انتاجه في علوم كثيرة ، وقد ترك كتباً جليلة أهمها : تفسير القرآن في نحو سبعة أجزاء ، وفتوح المغرب ، والعدل والإنصاف في أصول الفقه في ثلاثة أجزاء ، والقصيدة الحجازية في (٣٥٠) بيتاً ، وكتاب مروج الذهب في الفلسفة ، وكتاب ترتيب مسند الربيع بن حبيب ، وكتاب الدليل لأهل العقول الذي يشبه دوائر المعارف المبسطة[2] .

---

(١) البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم ص ٢٩٩ .

(٢) انظر تاريخ الجزائر العام ١ / ١١٦ .

دَولَـةُ المُرابِطـين

صورَة دَولَـة إسْلاَميَّة زاهِرة

دولة المرابطين
صورة دولة إسلامية زاهرة

على امتداد النصف الأول من القرن الخامس الهجري ساد بلاد المغرب والأندلس ، تمزق طائفي من أسوأ ما عرف المسلمون من تمزق .

ويهمنا هنا التركيز على الطائفية التي سادت المغرب ، فلقد شاع أن النزعة الطائفية ارتبطت بالأندلس وسيطرت عليها ، مع أن الحقيقة التاريخية تقرر أن عصر الطوائف في بلاد المغرب كان أشدّ وأسوأ من نظيره في الأندلس ، ذلك لأن الطوائف في الأندلس كان مجرد تمزق سياسي ، أما الطوائف في المغرب . فكانت إلى جانب ذلك ـ تفككاً عقدياً وفكرياً وهو لون أخطر من مجرد التفكك السياسي .

وقد بلغ الهبوط العقدي أسوأ درجاته في المغرب في تلك المنطقة التي تعرف الآن بمنطقة موريتانيا والمغرب الأقصى ، أي في المنطقة الصحراوية . إذ أن هذه المنطقة حفلت بأربع طوائف ساد الضلال بينها ، وهي غمارة في

الشمال ، وبرغواطة في الغرب ، والشيعة والوثنيون في الجنوب ، وزناتة التي تمتد بين كل هذه الأرجاء نظراً لضخامة عددها .

وقد انتشر المتنبئون والدجالون بين قبيلتي غمارة وبرغواطة انتشاراً كبيراً ، ومن أبرز الكذابين الذين ظهروا بين غمارة في الشمال الصحراوي ، المتنبىء حاميم بن منّ الله ، وعاصم بن حميل ، وعيسى بن حاميم . . . ومن أبرز الكذابين الذين ادعوا النبوة في برغواطة في الغرب صالح بن طريف ، الذي زعم بعضهم أنه ينتمي إلى أصل يهودي .

* * *

وقد شاءت عناية الله سبحانه وتعالى أن ينقذ المغرب الإسلامي من هذه الردّة ، وأن يعيده إلى حظيرة الإسلام ، فنشأت دولة إسلامية صادقة العزم صافية المبادىء بجهود بعض المسلمين الغيورين الذين ساءهم ما وصلت إليه الحالة الدينية ، وعلى رأسهم الفقيه الصالح أبو عمران الفاسي ، وتلميذه الفقيه الداعية عبد الله بن ياسين ، الذي لعب دوراً خطيراً وفعالاً في إنشاء هذه الدولة .

إن هذه الدولة التي يرجع إليها الفضل في القضاء على هذه الردة ، وفي عودة الإسلام إلى مكانه في الحياة المغربية ،

هي دولة المرابطين التي قامت في صحراء المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري .

وقد قامت مبادىء هذه الدولة على ركنين أساسين هما :

١ ـ الالتزام بالإسلام الصحيح على أساس أصليه الثابتين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

٢ ـ احياء فريضة الجهاد في سبيل الله ، وهي الفريضة التي كادت تندثر على أيدي عصر الطوائف ! !

وانطلاقاً من هذين الركنين اللذين يعودان في الحقيقة إلى أصل إسلامي واحد لا يتجزأ قام المرابطون بحركات جهاد واسعة ضد هذه الردّة ، ونجح القائدان المسلمان الصالحان عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر اللمتوني في القضاء على الباطنية وعبدة الكباش الوثنيين في الجنوب ، كما استطاعا القضاء على برغواطة قضاء كاملاً في منطقة (زعير) قرب الرباط ، وفي الجانب الآخر استطاع القائد المرابطي المعروف يوسف بن تاشفين في القضاء على الجناح الآخر جناح غمارة مستولياً في طريقه إليهم في الشمال على فاس التي كانت تسيطر عليها زناتة ، بانياً في طريقه كثيراً من القلاع والحصون ، وعلى رأسها حصن تاوده ، وحصن أمرجو- ولم يكد ينتهي عقد واحد من الزمان على نشأة الحركة

المرابطية السلفية الجهادية حتى كان المغرب كله قد عاد إلى الإسلام الصحيح ، وتوحدت كلمته تحت بطل من أفضل الأبطال الذين عرفهم تاريخنا الإسلامي ، وإن كان قد ظلم حقه من البحث والتحليل ، وهو البطل المسلم أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي لم يضع سلاحه لأكثر من ثلاثين سنة ، والذي تنازل عن الملك طواعية وحباً في الاستمرار في الجهاد ، لابن عمه يوسف بن تاشفين ، بينما استمر أبو بكر مجاهداً هو ومن معه في داخل إفريقية ، تاركاً ابن عمه يوسف بن تاشفين في المغرب ـ حتى أسلم كثير من الأفارقة على يديه ، بل بفضله دخلت دول وقبائل إفريقية كثيرة في الإسلام حتى لقى الله شهيداً سنة ٤٨٠ هـ .

وقد كان أبو بكر أثناء إقامته في المغرب ، قد اتخذ من أغمات عاصمة للمرابطين يفد إليها الذين يرغبون في العودة إلى الإسلام الصحيح ، والذين يرغبون في الجهاد ـ فلما ضاقت به وبأعوانه انتقل إلى مكان فسيح تتوافر فيه كل شروط المدينة الإسلامية ، وبنى فيه عاصمة المرابطين الكبرى ، وهي مراكش سنة ٤٦٢ هـ واشترك أبو بكر نفسه في تعميرها بيديه ، وفي الانتقال إليها قبل أن تبنى فيها المساكن والمرافق .

وقد استطاع أبو بكر اللمتوني ، ذلك البطل المسلم ،

أن يبسط سلطان المرابطين على مملكة غانا التي تعتبر أقدم دولة في غرب إفريقية ، ونشر الإسلام بين ربوعها ، وفي هذا يقول صاحب الحلل الموشية ، وهو مؤلف مجهول ، « وأسلم أهل غانة ، وحسن اسلامهم عند خروج الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني إليهم » ويقول ابن أبي زرع صاحب روض القرطاس : « وخرج أبو بكر إلى غزو بلاد السودان فجاهدهم حتى فتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر إلى أن استشهد بسهم مسموم بعد أن استقر له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان » .

ـ وهكذا استشهد هذا البطل المرابطي العظيم ، لكنه خلف وراءه في المغرب بطلاً صنواً كفئاً لحمل الأمانة ، وهو البطل يوسف بن تاشفين ، الذي اتجه إلى ما وراء مضيق جبل طارق ، فعبر إلى الأندلس ، بعد أن أتم فتح بلاد المغرب ، وأتم بناء مراكش ، وتمكن رحمه الله من صد خطر النصارى الاسبان ، وانتصر عليهم هو وقادته في أكثر من موقعة، ولعل أشهرها موقعة الزلاقة التي وقعت سنة ٤٧٩ هـ شمال بطليوس ، التي هزم فيها الفونسو السادس ، وأبيد جيشه الذي بلغ ستين ألفاً ، ولم يبق منه إلا ثلثمائة جندي هرب بهم الفونسو مذعوراً بعد أن طعن بخنجر في فخذه ، وقد أنقذت هذه الموقعة مسلمي الأندلس من مصير مظلم ، وانفسح الأمل أمامهم قرناً كاملاً . كان حرياً

بهم ان يحسنوا استغلاله لأنها فرصة أعطاها الله لهم على يد هؤلاء الأبطال المسلمين الصادقين ، أبطال دولة المرابطين الذين كتبوا بدمائهم وجهادهم ـ صفحة من أروع صفحات حضارتنا الإسلامية .

دَولَـةُ المـوَحـّدِيْن
صـورَة زَاهـرَة مِنْ حَضـارتـنا

دَولَـةُ المُوَحِّدِين
صُورَة زَاهِرَة مِنْ حَضَارَتِنَا

هذه الصفحة نقرؤها من كتاب حضارتنا الإسلامية ونحسُّ بأن ثمة أخطاء في سطورها الأولى . . أجل . . ألسنا نتحدث عن صفحة دولة الموحدين التي ورثت المرابطين في المغرب الإسلامي في العقد الرابع من القرن السادس الهجري ؟

. . ألم تقم هذه الدولة على الانتقام الهمجي من دولة المرابطين الذين أسدوا للحضارة الإسلامية خدمات عظمى ؟ ألم يكن قائد دعوة الموحدين هو الزعيم (محمد بن تومرت) الذي زعم أن له نسباً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، بينما قضى على اللسان العربي ، ونشر اللسان البربري ، وادعى أنه (المهدي) وزعم أنه معصوم . . . ؟ بلى . . . إن تلك هي الأخطاء التي نقرؤها في سطور الدولة الموحدية الأولى . لكن ، كما يخرج النور أحياناً من التراكمات المظلمة ، وكما تنبثق الشمس من بين السحب . . . كذلك ما إن مات المهدي بن تومرت سنة ٥٢٤ هـ حتى بدأت موازين دولة

الموحدين تعتدل على يد (عبد المؤمن بن علي) الذي خلف محمد بن تومرت ومات سنة ٥٥٨ هـ ، ثم ابنه يوسف بن عبد المؤمن (ت ٥٨٠ هـ) فابنه يعقوب المنصور (ت ٥٩٥ هـ) بطل معركة الأرك التي وطدت لدولة الاسلام في الأندلس نحو ربع قرن من الزمان ، ثم الناصر بن المنصور المتوفى سنة ٦١٠ .

وبعد هـذا الجيل المقدر للمسئولية من أمراء دولة الموحدين ، تتابع أمراء الضعف المشغولون بأنفسهم وملذاتهم وصراعاتهم الداخلية من أمثال :

يـوسف بن محمد المستنصـر (ت ٦٢٠ هـ) وعبد الواحد بن يوسف (ت ٦٢١ هـ) وعبد الله بن المنصور (ت ٦٢٤ هـ) والمأمون والرشيد والسعيد والمرتضى وادريس ، الذي قتل سنة ٦٧٤ وبقتله انتهت صفحة دولة الموحدين .

* * *

إن هذه الدولـة الموحـدية ، كـانت الدولـة الكبرى الجامعة ، التي انتظمت المغرب كله ، والأندلس كله ، وقد أقامت وحدتها على أنقاض دويلات طائفية كادت تقوم في الأندلس مرة أخرى بعد انحدار نفوذ المرابطين ، وعلى أنقاض دويلات مغربية طائفية كذلك ، أبرزها دويلة بني حماد في الجزائر ، ودويلة بني زيري التي كانت قد خضعت لسيطرة

النورمان على تونس ، ثم دويلات زناتيه منتشرة فيها بين برقة وموريتانيا من الجنوب الصحراوي المغربي .

فلهذه الدولة الفضل في هذه الوحدة التي انتظمت المغرب والأندلس ، كما أن لها اليد الطولى في عودة تونس إلى حظيرة الإسلام بعد أن استولى عليها النصارى النورمان المتعصبون .

وقد اشتهر عن هذه الدولة ، وبخاصة في عهد أمرائها الأقوياء ، ازدهارها الاقتصادي الذي تمثل في أربعة مظاهر أساسية هي :

أولاً : كثرة المصانع سواء في المغرب أو الأندلس .

ثانياً : التبادل التجاري مع مختلف أقاليم حوض البحر المتوسط ، حيث كانت للموحدين مكاتب تجارية تشبه الفنادق في بعض مدن فرنسا وإيطاليا كمرسيليا وجنوة والبندقية .

ثالثاً : العملة الموحدية القوية . .

رابعاً : الأسطول التجاري البحري الذي كانت تعزّزه صناعة السفن[١] .

وفي المجال العقدي أو الفكري وقف الموحدون في وجه

---

(١) انظر : د / عباس الجرادي : الأمير الشاعر سليمان الموحدي ص ٢٣ نشر المغرب .

السيطرة الكاملة التي تمتع بها فقهاء المذهب المالكي الذي غالى بعضهم في نظرته إلى مذهب الامام مالك ، فأغلقوا به باب الاجتهاد ، وفرضوه على الناس ، وكأنه ليس مجرد مذهب فقهي . بل هو المذهب الذي لا يجوز الخروج عنه .

فلما جاء الموحدون دعوا إلى الاجتهاد ، وشجعوا الرجوع إلى الكتاب والسنّة ، وازدهرت في عهدهم دراسة علمي الكلام والأصول ، وكان من نتيجة ذلك أن لان فقهاء المالكية وتركوا التعصب المذهبي الأعمى لأئمتهم ، ومالوا إلى النظر في كتب الأصول. وقد انتشر في عهد الموحدين مذهب الظاهرية ، حتى إن الأمير الموحدي يعقوب المنصور مال إلى الأخذ بمذهب الظاهرية إعجاباً بأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الظاهري . وكان لا ينفك يقول لأشياخ المذهب بأنهم عيالٌ على ابن حزم .

وفي عصر الموحدين . وفي قصورهم عاش عبد الحق بن سبعين السّبتي ، وأبو الوليد ابن رشد ، وأبو بكر محمد بن طفيل ، وأبو بكر بن زهر الطيب ، وأبو العباس الأنصاري المعروف بابن الصقر ، وأبو بكر محمد بن عبد الله الفهري الأشبيلي ، وابن حنين الكناني ، وأبو زكريا الحجاج اللبلي ، وأحمد بن هارون الشاطبي ، وأحمد بن عتيق البلنسي ، وأبو مروان اليمامي وغيرهم .

وفي علمي الأصول والكلام نبغ أبو عمران عثمان القيس المعروف بالسلاجي ، وصاحب كتاب العقيدة البرهانية ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بابن الكتاني ، وأبو الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرالي المراكشي، ومحمد بن يوسف المزوغي ، وأبو محمد بن زغبوش المكناسي ، والقاضي أبو الفضل عياض صاحب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . . .

وفي الفقه عرف القاضي عياض وولده محمد أبو عبد الله ، وأبو الحسن الرجراجي ، صاحب التحصيل في شرح المدونة .

وفي اللغة والنحو والأدب عرف أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي ، وأبو الخطاب بن دحية ، وأبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي المراكشي ، وتلميذه ابن معطي أبو زكريا الزدادي صاحب الألفية في النحو .

* * *

وما ذكرناه ليس إلا إلمامة سريعة بأبرز من عرفوا في العصر الموحدي في بعض العلوم ، فهناك آخرون كثيرون عرفوا في العلوم التي ذكرناها ، ولم نر ضرورة لذكرهم ، كما أن هناك كثيرين برزوا في العلوم العملية كالهندسة والطب

والجغرافيا وغيرها من أمثال : الحيسوبي الأندلسي أبي الحسن القيسي، وأبو عبد الله العابد الأنصاري ، وابن الياسمين ، وأبو علي حسن المراكشي الفلكي ، ويحيى بن بقي السلادي الطبيب ، وغيرهم ، لكننا في هذا المجال إنما نقدم نماذج تؤكد ما نذهب إليه من وجود آثار حضارية يانعة لدولة الموحدين . . لا يمكن لنا أن نغض الطرف عنها لمجرد ان السطور الأولى في حياة هذه الدولة كانت سطوراً مشوبة بالقلق والتخبط .

إن هذه السطور الأولى لا يمكن أن تقضي على كل ما حوته صفحة دولة الموحدين الرائعة ، في كتاب حضارتنا الاسلامية حضارة الحق والعدل التي تبطل الباطل في موضعه ، وتحق الحق في موضعه «فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

صورة دولة بني زيان

شهدت مطالع القرن السابع الهجري في المغرب والأندلس حدثا خطيراً هو هزيمة دولة الموحدين أمام النصارى الاسبان في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ وكان من أثر هذه المعركة على المغرب أن انقسمت دولة الموحدين في شمال إفريقية إلى ثلاث قوى هي : الحفصيون في تونس ، وبنو مرين في مراكش ، وبنو زيان في الجزائر .

والصفحة التي نقدمها من كتاب الحضارة الاسلام اليوم تتعلق بهذه الدولة الزيانية التي ظهرت في الجزائر على أنقاض دولة الموحدين الجامعة ، قبيل منتصف القرن السابع الهجري بقليل .

● ففي سنة ٦٣٣ هـ استقر الأمر ليغمراس بن زيان بتلمسان بعد أن ولي عليها من قبل الموحدين قبل ذلك فترة طويلة عمل خلالها على أن يتوافد الزيانيون وزناته عموماً وتباعاً الى تلمسان مدينة المستقبل الزياني ـ أو عبيد الوادي .

ولم يكد يغمراس يستقر بتلمسان حتى دهمه أبو زكرياء (صاحب تونس) وانتزعها منه . . وخرج منها (يغمراسن) بشق النفس . . وقد بقي مبعداً عنها تسعة أشهر حتى أعاده أبو زكرياء والياً من قبله عليها .

●وفي الفترة الأولى من حياة الدولة ، أي من سنة ٦٣٣هـ إلى سنة ٦٨١ هـ ظل الصراع دائراً بين القوى الحاكمة في المغرب كله . . . بين بني مرين في المغرب والحفصيين في

تونس ، وبني زيّان في الجزائر ، حتى ثبتت نسبياً الحدود المعروفة بين القوى المتصارعة .

● ومع ذلك فلم تزل عوامل الفتنة تتحرك بين هذه القوى حتى سقط الزيّانيون سقوطهم الأول على يد بني مرين سنة ٧٣٧ هـ .

● وعندما عادت الأمور في تلمسان إلى بني زيان ، كانت الأحوال في المغرب قد تغيرت ، وبدا كأن كفة تلمسان سترجح كفة بني مرين وبني حفص . . ونحن نستطيع اعتبار عصر ابي حمو موسى بداية قوة الحضارة الزيانية . . . أي اننا بطريقة أخرى نعتبر الفترة الثانية التي امتدت حتى ظهور الأتراك هي العطاء الحضاري القوي لبني زيان .

● ومع ذلك فنحن لا نسقط الدور العبد الوادي (الزياني) الأول من كتاب الحضارة ، فمما لا شك فيه أن النظم الإدارية والمالية والاقتصادية والثقافية قد حظيت باهتمام كبير منذ قيام الدولة ، وحتى في عهد يغمراس بن زيان ـ مؤسس الدولة نفسه .

وابن خلدون يصف (يغمراسن) فيبرز هذا الجانب ، ويقول : « كان يغمراسن بن زيان من أشد بني عبد الواد بأساً وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالاً ، وأعرفهم بمصالح أهله ، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك ، واضطلاعاً بالتدبير

والسياسة ، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده ، وكان مرموقاً بعين التجلّة مؤمَّلًا للأمر عند المشيخة ، تعظمه الخاصة ، وتفزع إليه في نوائبها العامة ، فلما تولى هذا الأمر بعد أخيه أبي غرة سنة ٦٣٣ قام به أحسن قيام ، واضطلع بأعبائه ، وظهر على الخارجين على أخيه ، وأصارهم تحت سلطانه ، وأحسن السيرة في الرعية ، واستمال عشيرته وقومه وأحلافهم بحسن السياسة والاصطناع وكرم الروم والغزّ ، وفرض العطاء ، واتخذ الوزراء والكتاب ،وبعث في الأعمال ، ولبس شارة الملك والسلطان ، ومما أثار الدولة الموحدية المؤمنية ، أنه لم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش » .

إننا أمام نص واضح الدلالة على أن الحضارة والشخصية الزيانية قد سارت جنباً إلى جنب مع بداية الدولة ،وكان يغمراسن استهلالاً قوياً لحضارة ولتاريخ الدولة الزيانية معاً لكن مع ذلك يبقى أن العطاء في الفترة الأولى ظل ـ نتيجة الصراع المغربي العام بين القوى ، والصراع الزياني الحفصي ثم المريني ـ ظل هذا العطاء في فترة اختمار ، يحاول أن يعقد لنفسه أصولاً ويثبت لنفسه وجوداً متميزاً . . .

وقد أكد كثير من المؤرخين أن المدن المختلفة التي وقعت تحت نفوذ بني زيان ـ كانت تزخر بالصناعات والمتاجر ،

فتلمسان كانت ميناء تستقبل السفن الصغيرة ، ولكن المدن القريبة منها مثل وهران وهنين ، كانت تصل إليها السفن الكبيرة ، فكانت أسواق هذه الموانىء أماكن تتبادل فيها السلع وتتناقلها الأيدي ، وكان ثمة أشياء دقيقة الصنع ، كتلك الشجرة التي كانت بقصر أحد الملوك الزيانيين ، وهي عجيبة مصنوعة من الفضة الواقعة على اغصانها تماثيل طيور مختلفة الأشكال والألوان ، تحاكي أشباهها من الطيور الطبيعية ، وكلها مصنوعة بحيل ميكانيكية لطيفة يعلوها صقر ، فإذا نفخ في أصل الشجرة صوتت تلك الطيور كلها بأصوات على غرار نظرائها من الطيور ، حتى إذا تموّج الهواء ، وبلغ إلى الصقر صوتٌ ، فتنقطع لصوته جميع الأصوات ، كما نقل الامام المغراني عمّن شاهد هذه الشجرة بنفسه وسمع تغريد طيورها بحضرة السلطان بتلمسان[1] .

كما أن العناية بالجيش كانت أساساً من أسس هذه الدولة ، وقد كان أبو حمو الزياني يستعرض جيوشه بين الفينة والفينة . والجيش ، كما يبدو من وصف أحد هذه الاستعراضات ، كان متنوع الكم والعدد . يقول أحد الكتاب في أخبار عرض عسكري جرى سنة ٧٦٢ / ١٣٦٥ يقول : « وفي شعبان من سنة ٧٦٢ هـ صدرت الأوامر العلية

(١) انظر صفحات معربه نقولا زيادة ص ٤٤ بيروت ١٩٦٦

للقبيل الأعز وكافة القوّاد المذكورين بحشد العساكر الى الحضرة الكريمة لتعرض بين يدي خليفة الله نصرة الله ، وفي أول شوال اجتمعت المحلات كافة بالبسيط من ظاهر الحضرة فجلس أمير المسلمين أيده الله تعالى لعرض جيوشه المظفرة في خباء مطل من أعلى هضبة ، على بسيط مستو اصطفت به الكتائب لا يحويها العدد ولا تحيط بأقطاره الأبصار من كل شاكي السلاح منحدب على قناة المنا ، لا يعرف إلا سيفه ولا يستشير غير عزمه ، قد أخذوا زينتهم تحسبهم الخمائل المزهرات من فوق الكثبان الهائلة »[1] .

- إنه لمّا يقرب من اليقين أن فترة التمهيد التي طالت للحضارة الزيانية ، وهي تدافع عن وجودها في تلمسان والمغرب الأوسط بعامة . . هذه الفترة قد أعطت الزيانيين إيجابيات خاصة :

١ - فهي حضارة ثبتت أركان وجودها بالتراب الجزائري عن جدارة واستحقاق . . . أي أنها حضارة ممثلة لانسان هذه الأرض تمثيلاً صادقاً .

٢ - وهي حضارة التحمت بقوى المغرب العربي كله . . فهي منه وله . . وبالتالي فقد عبّرت هذه الحضارة ايضاً عن المغربية ذات الطابع الاسلامي العربي الأصيل .

---

(١) صفحات مغربية نقولا زيادة ص ٤٧ .

٣ ـ وإذا نحن أدركنا ظروف العالم الإسلامي في هذه القرون، ورأينا كيف ان المجتمع الاسلامي في قواعده الشعبية على المستويات المختلفة.. مستوى الفقهاء أو الأدباء أو الشعراء أو التجار أو الرحالة، هذا العالم الاسلامي كان يتداخل تداخلاً كبيراً ويبدو وكأنه ينصهر في بوتقة كبيرة ذات ملامح كبرى واحدة، إذا نحن أدركنا هذه الظروف أمكننا أن نضيف بعداً جديداً من أبعاد حضارة الزيانيين، وهو البعد الإسلامي الأندلسي العام.. ولعل مما يؤكد هذه الخصيصة ما روي من أن أبا العباس المقرّى التلمساني كان ينوي أن يؤلف كتاباً عن تلمسان بعنوان «أنواء نيسان في أبناء تلمسان» وأيضاً ما ورد في سيرة علماء تلمسان موزعاً بين كتاب أبي عباس الغبريني «عنوان الدراية» وابن أبي مريم «البستان في أخبار تلمسان» وغيرها من الدراسات التي تناولت هذه الصفحة من كتاب الحضارة الاسلامية المتعددة العطاء... الزكية النماء.

الصّورة الحضاريّة لملوك الطوائف

من الظواهر الفريدة الفذة في حضارتنا ظاهرة تستأهل الدراسة والتحليل ، بكل أبعاد المنهجية العلمية القادرة على الكشف والايضاح .

هذه الظاهرة الفذة هي قدرة هذه الحضارة على أن تتفوق على عوامل الانكسار السياسي وظروف التمزق والتشتت في الأبنية الفوقية الحاكمة ، بل إن هذه الحضارة تبدو ـ في هذه الظروف ـ وكأنها تتحدى عوامل الانهيار ، او بتعبير آخر كأنها تزداد توهجاً لتثبت أهليتها للوجود ، واستحقاقها للاستمرار ، ولتستثير في أصحابها ، وحملة مشاعلها كل إمكانات التشبث بها أو الذود عنها ، والتعبير عن مجالات عطائها الخصب الفريد .

وبين يدينا ـ في هذه الكلمة ـ دليل نحسبه واحداً من أقوى الأدلة على صحة هذه الظاهرة في حضارتنا الاسلامية ، إنه صفحة من كتاب حضارتنا نقرؤ ها فنأسف لها ، ونستشف منها عبراً أليمة لحاضرنا الذي يحذو حذوها ، ونرجو أن نعبرها إلى صفحة تصححها ، وتقوم اعوجاجها . . أجل إنها صفحة (ملوك الطوائف) الذين سيطروا على الأندلس ، أو سيطرت عليهم تيارات الفتنة في الأندلس ، فجروا في مجراها ، وسبحوا مع السابحين فيها ، حتى حولوا تلك الدولة الأندلسية القوية التي أرهبت أوربا في عهود عبد الرحمن الداخل وأبنائه هشام الرضا ، فالحكم بن هشام . . إلى عبد

الرحمن الناصر ، ثم الى المنصور بن أبي عامر الذي غزا سبعا وخمسين غزوة لم يهزم في واحدة منها قط . . أجل حولوا تلك الدولة الواحدة القوية المرهوبة إلى أكثر من عشرين دويلة هزيلة ، يسطو النصارى عليها دويلة دويلة ، حتى اقتربوا من وسطها ، او قلبها ، وهو استيلاؤهم على طليطلة التي هزت كارثتها الأندلسيين هزة عنيفة .

* * *

والغريب أنه ، مع ذلك ، كان هذا العصر جافلاً بأكبر العقليات التي عرفتها الأندلس ، فابن حيان شيخ مؤرخي الأندلس ، هو من نتاج العصر ، وابن عبد البر ، المحدث والمؤرخ الكبير ، وابن شهيد صاحب التوابع والزوابع ، وابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد . . والزبيدي والقسطلي أبو دراج ، والطبني ، وأبو العلاء صاعد ، صاحب طبقات الأمم ، والحميدي صاحب جذوة المقتبس ، والناجي أبو الوليد ، شيخ المالكية والفقيه الكبير ، وأبو الحسن بن سراج ، وعبد الرحمن بن فتوح مؤلف كتاب بستان الملوك . . والشعراء الكثيرون الذين لا زالت لأسمائهم شهرة عالمية ، وإن كنا - من منظورنا الاسلامي - نختلف مع منهجهم ، كابن زيدون ، والأمير الشاعر المعتمد بن عباد ، ووزيره ابن عمار . . .

.. كل هؤلاء الأعلام ظهروا في هذا العصر الممزق المتداعي .. عصر ملوك الطوائف ، وكانوا الومضة المشرقة التي تحدت بها الحضارة الاسلامية عوامل الانهيار السياسي ، وطريق السقوط التاريخي الذي انحدر إليه حكام عصر الطوائف الذين شغلتهم الدنيا عن الدين ، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فلا كسبوا الدنيا الفانية ، ولا أصلحوا علاقتهم بدينهم الباقي .

* * *

في هذا العصر الطوائفي الشاذ انتشرت المساجلات العلمية والمناظرات التي كان هدفها البروز العلمي ،وكسب الثقة والمكانة والمال ، والانتصار ومقارعة الخصوم ، سواء من خارج الدين الاسلامي أو من المسلمين ، من أصحاب المذاهب الكلامية أو الفقهية ، ولم تكن مجالات هذه المناظرات التنافس والكسب فقط ولم تكن لمجرد التسلية والانتصار ، بل كانت أسلوباً من أساليب امتحان القدرة الفكرية والفنية ، والطريف في هذه المساجلات أو الامتحانات أنها لم تكن تذهب هشّة الآثار ، عادية التأثير ، بل كانت تنتهي بما يشبه نتائج الأطروحات العلمية في عصرنا الحديث ، فيرتفع قوم ويسقط آخرون ، بل كان أثر بعض هذه المناظرات ـ كما يقول بعض المؤرخين ـ أبعد أثراً لأنها كانت في بعض الأحيان ، تحكم على ناس بالانزواء الكامل،وترك معترك الصراع العلمي !!

وإلى جانب هذه الظاهرة العلمية التي برزت في عصر الطوائف ـ برزت ظاهرة العلاقات الثقافية القائمة على نوع من التنافس بين قرطبة وبعض حواضر العلم الكبرى في العالم الإسلامي .

وتعتبر رسالة ابن الرقيب القيرواني التي وجهها إلى أبي المغيرة بن حزم يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تدوين مآثر علمائهم وأخبار فضلائهم ، ثم ما تبع ذلك من رسائل ألفت في بيان فضائل أهل الأندلس .. تعتبر هذه الرسائل نموذجاً دالاً على بروز هذه الظاهرة في عصر الطوائف .

وقد ألف الأندلسيون ـ خلال هذا العصر ـ في العلوم والفنون ، وقلّدوا المشارقة في منهج تأليفهم ، وابتكروا وزادوا عليهم في كثير من المجالات ولم ينصرفوا إلا عن العلوم الضارة كالفلسفة الجدلية والتنجيم .

وقد نبغ في العلوم كثيرون منهم أبو اسحاق الزرقاني ، وأبو القاسم أصبغ بن السمح ، وأبو الوليد هاشم الوقشيّ ، وغيرهم .

* * *

على أن ذلك لا يعني ـ في نهاية الأمر ـ أن تظل مسيرة الأمور هادئة مع صور التمزق الطائفي .. فإن الحضارة كالجسم ، قد تعطيه قوته وأصالته فرصة عدم التأثر أو الانهزام

أمام الأمـراض الطارئة ، لكن ترك المرض في الجسم ، دون علاج أو استئصال يعطيه فرصة الانتشار ، فيعمل في الجسم عمله ، وكذلك الأمراض الحضارية ، . . ولهذا فقد ترك عصر الطوائف بصمات سيئة في جسم الحضارة الأندلسية الإسلامية ، وإن ظل معنى صمود الحضارة الاسلامية وتألقها قائماً وثابتاً . . وتلك هي العبرة المزدوجة التي يمكن لنا أن نفيدها من صفحة التقابل بين عطاء الحضارة الايجابي ، وسلبية التاريخ الطائفي .

. . وهي الصفحة التي أبرزت خصائصها فترة ملوك الطوائف في الأندلس المفقود . . في التاريخ ، والباقي في كتاب حضارتنا الاسلامية ، إنها صفحة لا يمكن أن تلغى من صفحاتنا الرائعة .

صورة من حضارتنا في غرناطة

في منتصف القرن السابع الهجري آل أمر دولة الموحدين التي حكمت المغرب والأندلس قبل قرن من الزمان إلى السقوط .

وكان من أبرز نتائج هذا السقوط وقوع الأندلس في حال من الضعف ، وافتقادها لقوة كبرى تحميها وتجمع شتاتها ، فعاد الأمر فيها أشبه بعهد الطوائف ، وتنافس طلاب الحكم على كل مدينة ، وضعف أمر الجميع ، وقوى أمـر العدو النصراني المتربص .

ومن بين هؤلاء المتنافسين ، الذين سقطوا واحداً تلو الآخر نتيجة صراعاتهم الرخيصة . . من بين هؤلاء استطاع أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن الأحمر أن يكوّن قوة استطاع بها أن يؤسس في جنوب الأندلس مملكة صغيرة أطلق عليها مملكة غرناطة .

وقد شاءت إرادة الله أن تنشأ هذه الدولة وسط جو عاصف من الصراعات الداخلية ، ومن الهجمات الخارجية المتتالية ، لكنها مع ذلك استطاعت ان تصمد وأن تعيش نحو قرنين ونصف قرن من الزمان . ومع كل هذا التحدي الخارجي الذي صـاحب الدولة حتى أسقطها فعلاً ، وأضاع ملك المسلمين في الأندلس كلها على يد الصليبيين الحاقدين :

فرديناند ملك أرجون ، وإيزابيلا ملكة قشتالة وليون ، سنة ٨٩٨ هـ (١٤٩٢ م) .

مع كل هذا ، فإن مملكة غرناطة الصغيرة قد استطاعت أن تقدم عديداً من الإضافات لكتاب الحضارة الاسلامية : ففي العلوم المتعددة الحقول ، قدمت التآليف الكثيرة والانتاج الضخم ، كما حافظت على ما خطته يد العلماء الذين سبقوا ، وانتفعت به ، نجد في الميادين الكثيرة ثبتاً طويلاً من أسماء اللامعين ، بعضها في الإحاطة لابن الخطيب (٧٧٦ هـ) وفي نفح الطيب (١٠٤١ هـ) . كما أنشئت المدارس ومعاهد العلم الأخرى في كل ناحية، وتوفرت الاختراعات من مثل : المدافع التي ترمي نوعاً من المحروقات وتحويل البارود إلى طاقة قاذفة ، وعنهم انتقلت إلى أوربا ،ولم يزل متحف مدريد الحربي يحفظ حالياً البنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة .

وفي الصناعات، ازدهرت انواع كثيرة، فقد برزت الأندلس في دور صناعة السفن ثم الأنسجة وصناعة الورق و « الغمار المذهب العجيب » وأنتجت الكثير في ميدان الأصباغ والدباغة والجلود وصناعة الحلى . والصناعات الفنية الدقيقة . كذلك برزت في الزراعة ووسائل الري والعناية بها وأنواع المزروعات ثم الجانب العمراني المتمثل في المباني المختلفة كالمساجد

والقصور والدور والقناطر ـ وقصر الحمراء الذي ما زال باقياً ، مزيناً بالنقوش التي تدل على ملكة فنية ماهرة رائعة ، كذلك المباني الحربية المتعددة .

وفي الكتب التي تركت لنا ، ووصلنا منها القليل ، إشارة إلى هذه الانجازات أو بيان عنها : وللتنظيمات المختلفة في المجتمع والدولة أهميتها ، فلقد غدت مدينة غرناطة في وقتها من أجمل مدن العالم بشوارعها وميادينها وحدائقها ومبانيها ومرافقها المتنوعة ، وكانت تضم حوالي مليون نفس ـ وتصدر كثيراً من الصناعات إلى عدة بلدان ، منها الأوربية ، وظهرت آثارها على هذه البلدان الأوربية في بعض المسائل الأخرى المعنوية ، فانتفعت إلى حد ما بالفروسية التي أقامت لها الحفلات الرائعة المتفننة ، بما تحتويه من ضروب البراعة والرشاقة .

هذا وقد شمل الجانب الفكري في الانتاج كافة الميادين[١] . نعرف كثرة من الأعلام أمثال : ابن البيطار (٦٣٦ هـ) وابن الرومية (٦٣٧) هـ وابن الجياب (٧٤٩ هـ) وابن خاتمة (٧٧٠ هـ) وابن الخطيب (٧٧٦ هـ) وأبو عبد الله : محمد بن الأزرق (٨٩٦ هـ) ومحمد بن الحداد الوادي آش وغيرهم كثير ، كما كان عدد من ملوك بني الأحمر

(١) د / عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ٥٦٠ ، ٥٦١ .

من العلماء والأدباء وبعضهم ألّف كتباً ، ورعوا العلم ورجاله ومعاهده ومواطنه وغير ذلك في هذا الباب كثير جداً .

إن مملكة غرناطة التي سبحت طيلة عمرها في تيار صعب ، ومع ذلك أعطت هذا العطاء كله ، واستطاعت على قدر ما أوتيت من امكانات ـ أن تقدم ألواناً عديدة من الانجازات . . ، إن هذه المملكة ، تقف خير دليل ، كما يقول أحد المؤرخين المعاصرين[1] ، على حيوية هذه الأمة الاسلامية ، وعلى استعداد هذه الامة للعمل والانتاج بقدر ما لديها من معاني الإسلام، وبقدر ما تمتلك من رسوخ في العقيدة كما تدلنا على أن الذي أصاب المسلمين بتقصيرهم وتخاذلهم حين الهبوط عن المستوى الكريم الذي أراده الاسلام أكثر مما اصابهم من عدوهم ، مع اعتبار أهمية هذا الأخير في الانشغال والاستنزاف والاطباق من كل جهة .

ومع ذلك ، فإن الحالة الداخلية هي المقياس ، فبمقدار وضوح الرؤية الاسلامية ، وبمقدار الارتباط بالعقيدة ، وتمحيص الأصدقاء من الأعداء . . بمقدار هذا تستطيع الأمة أن تواجه التحديات الخارجية ، دون أن يقف عطاؤها الداخلي في مجالات الحضارة المختلفة .

---

(١) المرجع السابق (المكان السابق) .

وتلك هي العبرة ذات الرؤ ية الخاصة والطعم الخاص ، التي نأخذها من هذه الصفحة من كتاب حضارتنا . . صفحة مملكة غرناطة التي كانت آخر ممالك أندلسنا الاسلامية المفقودة . . .

القسم الثاني

بُطولَات إسـلَامِيّـَة

بَطَـلُ القَادِسِـيَّة

بَطَــل القَــادِسَــيّة

الليل ساكن هادىء ، والناس جميعاً في سكون وهدوء ، بين قابع في منزله ينال قسطه من الراحة والنوم ، وبين مدمن خمر أو عربيد نساء ، يقطع سكون الليل بعربدته وفجوره ، ذلك شأن الناس في هذا الوقت الشاعري الجميل .

أجل . . . ذلك شأن الناس ـ كل الناس ـ إلا من نفر قليل آمنوا برسالة محمد بن عبد الله فهم الآن في تهجد وتبتل . .

وجلس على صخرة من صخور الكعبة فتى صغير في السابعة عشرة من عمره ، جلس مطرقاً يفكر ويفكر ، وينظر بعيني رأسه مرة إلى الكعبة ذلك الحرم المقدس ، ومرة إلى ذلك المنزل البعيد ـ منزل ابن أبي الأرقم ـ ويحاول الفتى جهده أن يوجد وجه التباين والاختلاف بين الكعبة وقد امتلأت بأحجارها وأصنامها ، وبين ذلك المنزل المقفر الخالي من الناس إلا من ستة رجال يحضرون كل ليلة مستترين عن أعين

الناس بالظلام ، كي يتعلموا عن محمد بن عبد الله مبادىء هذا الدين الجديد الذي سمع عنه من أمه صباح البارحة . .

وقال الفتى لنفسه وقد رأى رجلاً لم يعرف حقيقته يسير بحذر قاصداً منزل ابن أبي الأرقم : لم لا أتبع هذا الرجل وأقف على باب المنزل كي أتعرف على حقيقة هؤلاء القوم ، وأرى عن قرب حقيقة ما يؤمنون به وما أتى به هذا الذي يسمى محمداً ؟! وفعلاً سار الفتى متمهلاً ووقف على باب المنزل بحذر ، ووصل إلى مسمع الفتى وهو واقف صوت هادىء خافت كأن صاحبه يحذر هو الآخر شيئاً .

(وكانت مفاجأة ، وكانت يد السماء ، وكان قدر الله ، وكانت صفحة جديدة من صفحات التاريخ المضيئة ، صفحة البطل المسلم القائد سعد بن أبي وقاص) .

* * *

وقف سعد حابساً أنفاسه ، موجهاً كل إحساسه ومداركه نحو الصوت الذي يخرج من داخل المنزل !!

وجاءه الصوت يرتل في خشوع وخضوع قول الله تعالى في كتابه ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾ .

وأخذ القارىء في قراءته حتى وصل إلى قول الله :
﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ !!

وكان لهذه الآية موقعها من نفس سعد ، فرددها في نفسه ، وأخذ يكرر ما ردده ، وكأنه قد وجد فيها صورة من هول يوم القيامة وشدائده ، فارتعدت فرائصه ، وحمّ بدنه ، فانصرف من مكانه مذهولاً متخاذلاً ، وهو يردد في نفسه :

﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيبا﴾ !!

* * *

قام سعد ليلته وهو يتعجل بزوغ الشمس وخروجها من مكمنها ، وما إن بزغت الشمس حتى أسرع سعد إلى أبي بكر الصديق ، وجلس معه في مجلس من مجالس النور والإيمان ، سعد يسأل والصديق يجيب ، سعد ينصت والصديق يقرأ القرآن ، حتى بدا على وجه سعد الارتياح والإيمان ، فانتهز أبو بكر هذه الفرصة وعرض عليه الإسلام .

غير أن أثراً من آثار الجاهلية كان يتشبث به ، وخوفاً من أمه كان يلاحقه ، وعدة أسئلة عن نتائج إسلامه كانت تتبادر إلى ذهنه .

ولاحظ أبو بكر عليه ذلك ، فحاول جهده أن يجد في آيات الله القليلة التي نزلت ما يطمئن خاطره ، ويشرح صدر

سعد إلى الاسلام . . . ووجد أبو بكر آية كانت فصل الخطاب وبيت القصيد هي ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ويستخلص منها معان ، هي العدالة بعينها ، هي القانون الصارم الذي لا يأخذ برءاء بجريمة مذنب ، ولا يعفو عن مذنب في سبيل برءاء ، وألا أحد يغني عن صاحبه يوم يسأل المؤمنون المجرمين قائلين لهم : ﴿ما سلككم في سقر ؟﴾ . . . يوم لا تنفع أم ولا يغني أب . . .

وظل أبو بكر يستخلص المعاني السامية ويشرحها لسعد بأسلوبه الشائق .

فلما قام سعد من مجلسه إلا وهو سابع سبعة آمنوا بنبوة محمد بن عبد الله وشهدوا ألا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله .

* * *

وسار خبر إسلام سعد في قريش مسرى النار في الهشيم ، ووصل إلى أمه ـ وقد كانت مشركة متعصبة ـ وكان سعد باراً بها ، وقد حاولت معه بعد أن علمت بإسلامه كل ما تستطيع من دموع وتوسلات ، في سبيل أن يرجع عن الإسلام ، لولا أن الإسلام دين لا يعرف الميل عن الحق في سبيل العواطف أو التوسلات ، وهو إذا استقر في قلب عبد وتمكن منه فمحال أن يجد الضلال إلى قلبه سبيلاً .

ووقف سعد أمام توسلات أمه صامتاً صامداً قوي النفس ، فشهرت في وجهه سلاحاً آخر موقنة بأنه سيهيج عواطف ابنها ، ويرده عن دينه ، فامتنعت عن الطعام يوماً ثم يومين وأقسمت أن لا تذوق طعاماً ولا شراباً أو يرجع سعد إلى دين آبائه ، ووقف سعد ثانية من هذا الامتحان موقفاً أشد صموداً ، وصمم على ما آمن به ، وجابه أمه بقولته الخالدة : - « والله يا أمي لو كان لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني » فأيقنت أمه ألا نتيجة معه فأكلت وشربت .

ومضت شهور وأعوام على حادثة إسلام سعد هاجر الرسول فيها إلى المدينة - وكانت بدر - وكانت أحد - التي وقف فيها سعد تجاه حمايته للرسول موقفاً بطولياً - وكان فتح مكة . . وكانت القادسية !!

* * *

وفي القادسية كان تاريخ سعد ، ولو كان سعد هذا إنساناً آخر خلق ليقود معركة كالقادسية ، وهي من أقطع وأخطر معارك التاريخ - ثم يفعل فيها ما فعله سعد فيها وبعد ذلك يموت ، لسجله التاريخ وكتب عنه ما لم يكتبه عن غيره من أعظم القواد والفاتحين . .

ففي هذه الموقعة ظهرت براعة سعد في تفهم النفس

الإنسانية ، فقد تأكد لديه أن هيبة الفرس ما زالت يحسب حسابها عند العرب ، فكان يستهتر بالفرس ويعمل على انتزاع صورتهم العالقة في صدور العرب ،حتى تم له ما أراد ،وزالت هيبة الفرس من نفوس العرب، فكان العربي لا يهاب منازلة أحد من الفارسيين ، بل اثنين بل خمسة .

وبدأ سعد بعد ذلك في إرسال السرايا لمناوأة الفارسيين كي يعرف نقاط الضعف فيهم ، وكانت بينه وبينهم مراسلات باءت بالفشل إلى أن قامت المعركة الخالدة .

أجل . قامت المعركة الخالدة بين قوتين غير متكافئتين لا في السلاح ولا في الرجال ، ولا في الإيمان، فقد تفوق الفارسيون في السلاح والرجال كما تفوق المسلمون عليهم في الإيمان تفوقاً هائلاً . . .

ـ وبدأت المعركة يومها الأول .

وتقابل الجيشان وأعملت السيوف ، وكانت الأفيال قد تقدمت جيوش الفرس وعليها منهم من يضربون المسلمين بالنبال .

ـ ووجه بعض فرسان المسلمين الشجعان كل جهدهم إلى هذه الفيلة ومن عليها ، فكانوا يرمون من فوقها بالسهام في أعينهم ويضربونها في أقدامهم ، فكانت تهوي على

الأرض ، فتهلك من عليها ، ثم تفر مذعورة إلى الوراء فتسبب لجيش الفارسيين خسائر فادحة .

ـ وانتهى اليوم الأول . . .

فبدأت بذلك المعركة يومها الثاني :

وكانت قوة المسلمين قد ازدادت عن البارحة نتيجة الإمدادات التي وصلتهم من الشام وعلى رأسها القعقاع بن عمرو .

وعندما بدأت المعركة نازل القعقاع قائد الفرس الثاني بعد رستم ويدعى (بوهمن) فقتله وقتل كل من نازلوه ، وكان وطيس الحرب حامياً . . .

وكان اليوم كسابقه لصالح المسلمين .

وانتهى اليوم الثاني . . .

فبدأت بذلك المعركة يومها الثالث .

وفي اليوم الثالث جهز الفرس جيشاً من الفيلة أكثر من اليوم الأول ، فأمر سعد فرسانه بأن يستعملوا الحراب ، وأن يضربوا بها الفيلة في أعينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، فتقهقرت الفيلة وولت للمسلمين ظهرها ، وانطلقت مخترقة جيوش الفرس فسبّب ذلك نكبات كثيرة لجيش الفرس . . .

وقد استمات كل من الجيشين طيلة النهار ، واستمر القتال طول الليل ، فاندمج اليوم الثالث بالرابع ، والناس لا يدرون أأصبح المساء أم أمسى الصباح . . !!

- وحمل المسلمون على الفرس حملة صادقة ، وكان الفرس قد ضجروا ونالهم النصب ، فهجم بعض الفرسان على قلب جيش الفرس ، وقتل فارس مسلم مشهور يسمى (هلال بن علقة) قائد الفرس رستم ، فتخاذل الفرس ، واشتد عزم المسلمين وقويت شوكتهم فلعبت السيوف في أيديهم لعبة الموت ، وأطاحت بـرقاب ثـلاثين ألفـاً من الفارسيين الذين قيدوا أنفسهم بالسلاسل على عادة الفرس في الحرب ، واختلط حابل الفارسيين بنابلهم ، فمن استطاع أن يهرب هرب ، ومن مات مات ، ومن عاش بين الموت والحياة أماته الحزن والكرب والحقد على هؤلاء العرب الذين كانوا من رعاياه وخدامه .

وانجلت المعركة بنصر المسلمين فانمحت دولة الشرك من نصف العالم ، وقامت مكانها دولة أخرى عمودها الفقري : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، دولة مخططة منظمة على يد البطل العربي المسلم « سعد بن أبي وقاص » .

وأمام باب خيمة متواضعة ، تعيش كأثر من آثار المعركة وقف سعد يتلقى تهاني المهنئين ، ويصافح المسلمين أفواجاً .

وفوق خيمته علقت راية بيضاء ، كأن لسان حالها يقول :

ـ الآن علت كلمة الله في الآفاق . . . الآن سجل التاريخ بأحرف من نور صفحة سعد بن أبي وقاص المشرقة في أعظم معارك الإسلام والمسلمين . . .

في القادسية . . .

عَزِيمَة لا تَلين
وَقفة الإمَام ابن حَنبَل في الدِفاع عَن رأيِه

في مسجد بغداد الجامع . . . يرى الناظر حلقة علمية تصدرها شيخ جاوز الأربعين من عمره وحوله جمع من المصلين .

الجمع منصت عن رضا والشيخ يتحدث في وقار وأدب والمجلس تغشاه رحمة الله وعنايته .

واندلع صوت من الجالسين في الحلقة صائحاً :

سيدنا الإمام ما رأيك في القرآن . . . أهو مخلوق أو غير مخلوق ؟

وشخصت الأبصار واشرأبت الأعناق وهمست الأصوات: ما هذه الفتنة ؟ وما هذا الشيطان ؟

كان السائل هو الجعد بن درهم . . رجل من رجالات المعتزلة لا يبحث عن المعرفة ولا تهمه الاستفادة . . وإنما كل همه أن يرى الصفوف تتفرق والجموع تنصرف من حول هذا الشيخ الذي ذاع صيته واشتهر أمره .

ووقف الإمام « أحمد » وقفة يبحث فيها ويفكر ويقلب الأمر على وجوهه. وكما هي عادة العالم الصادق ألا يخاف في الحق لومة لائم قال للسائل :

إن القرآن ليس بمخلوق لأن المخلوق فان، وحاشا لكتاب الله أن يعد في الفانين .

واطمأن الحاضرون إلى هذه الإجابة واطمأنوا أيضاً إلى أن إمامهم لا يتحدث إلا عن علم، ولكن الجعد « السائل » نجح في مؤامراته ونال ما تمناه ، وخرج ينشر بذور الفتنة بين مذبذبي الرأي ، ووجد فيها فرصة ينال بها من هذا الشيخ الذي كاد يقضي على مذهبهم الاعتزالي. ووجد فيها بعض المنسوبين إلى الإسلام من المذبذبين فرصة ينالون بها من وحدة المسلمين فتدخلوا في شئون المسلمين عن طريق ضعاف الإيمان وفتح لهم المعتزلة صدورهم باسم حرية المناظرة والمجادلة فزرعوا بذور التفرقة . . . وانسحبوا سالمين . . واشتعلت الحرب بين فريقين . . فريق يرى عدم خلق القرآن . . وآخر يرى عن طريق إدراكه العقلي القاصر أن القرآن مخلوق . . . واستطاع المعتزلة أن يقنعوا الخليفة المأمون بمذهبهم فانضم إليهم . . وبدأ يشهر سلاح السلطة والقوة ، فأمر بأن يعذب ويسجن كل من لا يقول بخلق القرآن . . وأرسل على الفور إلى العلماء الواحد تلو الآخر كي يرى رأيهم فخضعوا جميعاً . . إلا قليلاً . . . وبعد صلاة فجر يوم من الأيام . . والإمام أحمد خارج من مسجد بغداد الجامع في شبه حلقة من المصلين . فوجىء الناس بكتيبة من الفرسان قد أطبقت على الشيخ وأمسكت بتلابيبه . . وساقته أمام المصلين مهانا حيث ينتظر استفتاؤه في قضية خلق القرآن .

وعز على المصلين أن يتركوا إمامهم يذهب هكذا وحده

فأسرعوا وراءه وأنبأ الحاضر منهم الغائب . . فخرجت المدينة عن بكرة أبيها . . وكلها أمل أن تسمع فصل الخطاب . . والرأي الأخير على لسان هذا الشيخ الورع وهذا الإمام التقي . . في هذه القضية الشائكة . .

وهناك . . في ساحة القصر وقف الإمام أحمد يشاهد الجند وهم يزفون البشرى بمقدم حاكم بغداد « اسحاق بن إبراهيم » وفاجأه الحاكم على غير عادته معه بصوت أجش ووجه كلوح ثم قال بلا مقدمات: سمعنا عن رأيك يا أحمد في خلق القرآن . . وهو ما لا يرضاه عقل ولا دين فبعثنا إليك حتى نتأكد من صحة الخبر ونسمع قرارك الأخير فنؤاخذك بما تستحق إن صممت على ما تقول .

وتريث أحمد قليلاً ووضع القضية بين كفتي عقله :

فالأولى تقول هل أنت أحسن من الشافعي؟ (لقد أفلت من الموقف بإيهامه الوالي أنه يقول عن القرآن بأنه مخلوق مع أنه كان يقول على نفسه ، أفلا أستطيع الإفلات مثله ؟ والثانية تقول : لا . لا . . إن الشافعي لم يكن في مثل هذا الموقف لقد كان واحداً فقط أما أنا فورائي أمة ومن ثم فإنه أول امتحان أستطيع به معرفة إيماني وأيضاً فإنه حكم على كتاب الله يلقى جزافاً وما ذلك من الدين في شيء. وانتصرت الكفة الثانية انتصاراً باهراً فلقد صرخ الإمام متحدياً هيبة

الحاكم وسلاحه وصاح في الشعب المنتظر رأيه الصائب وحكمه الفاصل :

أيها الناس : أعلن لكم أن القرآن ليس بمخلوق لأن المخلوق فان، وحاشا لكتاب الله أن يعد في الفانين . .

واضطرب الحضور، وزمجر اسحاق بن إبراهيم الحاكم في عرينه وأمر بالرجل فيضرب ويعذب وسيق وسط المجموع المحتشدة مغلول اليدين وهو يذكر الله ويحوقل والناس تبكي دينا يضيع ، وحاكماً يضل وعقائد تتحكم فيها القوة .

وفي هذه الأونة كان رجل يدعى خالد بن عبد الله القسري، من أنصار الإمام أحمد بن حنبل قد أخذ منه الحزن كل مأخذ فأقسم بينه وبين الله لينتقمن ممن تسبب في هذه الفتنة وهو الجعد بن درهم وبيت النية على ذلك .

وبدأ خالد في تنفيذ خطته للانتقام منه فتعمد الاحتكاك بابن درهم وهما في المسجد حتى كادت تقع بينهما مشاجرة لولا أن تظاهر خالد بالحلم ودعاه لأن يتصافيا في البيت ، وهناك . . تمت بداية الصداقة . . بل بداية نهاية ابن درهم ، وأظهر خالد القسري كل مقومات الصفات النبيلة أمام صديقه الجعد حتى اعطاه الجعد ثقته . . واجتمعا ذات يوم فأسرَّ إليه خالد أن يشاركه في رحلة خارج المدينة واستدرجه حتى انفرد به وهناك ذكره بفتنته والضحايا الأبرياء الذين ذهبوا

ضحيتها وضربه بسيفه فقصم ظهره ومات الجعد لتوه .

فرح المسلمون كثيراً واستبشروا خيراً حين علموا بموت رأس الفتنة الجعد بن درهم ، وكم تمنوا لو تتم فرحتهم بموت ذنبها المأمون ، وأخذوا جميعاً يتضرعون إلى الله ويرجون منه النجاة والخلاص ، وقد ساءهم ما علموه من أن إمامهم أحمد بن حنبل ، قد سيق ومعه رجل يدعى محمد بن نوح ، مكبّلين بالأصفاد إلى الخليفة الظالم ـ المأمون ـ وباتوا بأسرهَم في هم وكرب عظيم .

* * *

وجاءت الأنباء تترى :

لقد مات محمد بن نوح في الطريق ، ولم يبق إلا الإمام أحمد بن حنبل ، وحده ، واقفاً أمام غضب الخليفة وأمام أنصاره المعتزلة ، وترقب الناس حدثاً مؤلماً للإمام ، لا سيما وقد علموا بغيظ الخليفة الشديد ووعيده الأليم . .

وهنا نترك للتاريخ أن يسجل ، ولصفحاته البيضاء أن تكتب ، ولأصحاب المثل والمبادىء الرفيعة من التفاني والوفاء والإخلاص أن يبهرونا بقوة إيمانهم ، ومدى تمسكهم بعقائدهم ، وتعصبهم للحق بدون ما رياء ولا نفاق ، وبدون ما جزع ولا خوف .

يقول التاريخ :

لما دخل الإمام أحمد بن حنبل على المأمون، وعنده ـ أحمد بن أبي داود (وزيره الضال الذي كان سبب تمسك الخليفة بآراء المعتزلة وكان سبباً في إيذاء أحمد بن حنبل وغيره من المسلمين) لما دخل الإمام على المأمون استشاط المأمون غضباً ، وقام فزعاً وقال للإمام بصوت عالٍ ، وحدة غضب :

ـ هذا هو سيفي قد جردته من غمده فوالله لا أدخله فيه . . . إلا أن تعترف بخلق القرآن .

وسكت الإمام ، وللسكوت هنا معان غير التي عرفناها بيننا ـ فليس معناه هنا الرضا ، وإنما معناه الاستخفاف والاستهتار . وزادت حدة المأمون وتمنى لو نطق الإمام ولو بالنفي ،ولكن الإمام ظل على صمته مستخفاً بهذا الخليفة المتجبر مستهتراً بكل ما يملكه هذا الخليفة من قوة وسلطان ، ولما أن رأى المأمون تصميم الإمام أمر أن يطرح أرضاً وأن يجلد بالسياط ، حتى يعترف بخلق القرآن ، وجلس المأمون على كرسيه ، وأمر بجلاده أن يضرب . وضربه الجلاد أول جلدة ، وانتظر الحاضرون توجع الإمام أو على الأقل أن يتفوه بأية كلمة ولشد ما ذهلوا حينما سمعوه يقول : ـ باسم الله ـ

وتلت أول جلدة ثاني جلدة ونطق الإمام ـ الحمد لله ـ

وتلتها ثالث جلدة ونطق الإمام ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ـ

وتلتها رابع جلدة ونطق الإمام أشهدك اللهم أن القرآن ليس بمخلوق لأن المخلوق فانٍ وحاشا لكتاب الله أن يعد في الفانين . .

وهكذا استمر جلاد المأمون يضرب ، والإمام يردد آيات الصبر والتقوى ، شأنه في ذلك شأن المجاهدين الصابرين . .

وهنا كان الغضب قد أخذ من المأمون كل مأخذ ، فقام غاضباً يضرب الإمام بقدميه ، ويدوسه بنعليه ، ويبالغ في ذلك ظاناً بأن العلماء الحقيقيين تصلح معهم مثل هذه الأساليب الوضيعة . . .

وبلغ الغضب من المأمون مبلغاً أكبر حين سمع همس الإمام وهو يناجي ربه قائلاً :

رباه !! . . أشكرك أن أنزلتني منزلة بلال ، ووضعتني موضع الصحابة والتابعين ، ولم يطق المأمون مواجهة هذه القوة من الإيمان التي تتمثل في الإمام ، فأمر من فوره بأن يكبل الإمام بالقيود ، ويوضع في سجن مظلم مع اللصوص والمجرمين !!

* * *

استيقظ الناس صبيحة يوم من أيام عام ٢١٢ هجرية على صوت في المسجد يصيح : أيها الناس : أبشروا . . .

أبشروا ، لقد مات المأمون اليوم غير مأسوف عليه ، فانجلت بموته محنة إمامكم ، وانكشفت غمته . . .

ولكن !!

هل انكشفت المحنة حقاً ؟

يعلم الله أنها لم تنكشف ، بل زادت حدة وغلظة ، فلقد ترك المأمون وصية لأخيه المعتصم ، يرجوه فيها أن ينهج منهجه ، ويسير سيرته في الناس ، خاصة مع القائلين بعدم خلق القرآن .

وفعلاً مضت الأمور في عهد المعتصم على غرار عهد المأمون . . . وسيق الإمام ثانية مكبلاً بالأصفاد والأغلال إلى المعتصم الذي أمر بأن يوضع الإمام في سجن مظلم ثمانية وعشرين شهراً ، وأن يهان ويعذب وينكّل به أي تنكيل .

* * *

ومرت الأيام ، وانقضى عام وعام ، والشيخ صابر لقضاء الله مدة تزيد عن العشرين عاماً ، تعاقب فيها الخلفاء الواحد تلو الآخر ، وكل منهم يتفنن في إيذاء الشيخ ، محاولاً بذلك أن يصل إلى انتزاع كلمة من الشيخ الفقيه تخالف ما يضمره في قلبه .

ولكن أنّى لهم أن يصلوا إلى مبتغاهم ! والإمام صادق الإيمان قوي العزيمة والعقيدة ، والمؤمن إذا دخل الإيمان قلبه

فهيهات أن يجبن أو أن يتراجع عن قول الحق ، مهما تجمعت عليه الشدائد أو تراكمت عليه كل المحن .

* * *

وأقبل عام ٢٣٢ هجرية ، وأذن الله للغمة أن تنقشع ، فمات الواثق بدوره ، وولى على أمور المسلمين رجل مسلم عادل هو (المتوكل) .

ولقد اقتنع المتوكل منذ توليته بآراء الإمام أحمد ، وأيقن أن القرآن ليس بمخلوق ، فما كان منه إلا أن دعا إليه الإمام أحمد ، ومكنه من رقبة (أحمد بن أبي داؤد) ذلك الذي كان يحث المأمون ، ثم المعتصم ، ثم الواثق ، على إيذاء الإمام والتنكيل به . بيد أن الإمام عفا عنه لوجه الله تعالى .

وخرج الإمام أحمد من منزل الخليفة المتوكل متوجهاً إلى بغداد ثم إلى المسجد الجامع حيث سار ووراءه حشد كبير من الناس يهللون ويكبرون ، ويشكرون الله الذي نصر الحق على الباطل ، وأعاد إليهم إمامهم سالماً غانماً ، بعد غيبة طالت ومتاعب انقضت .

وهناك في المسجد الجامع : وقف أحمد فوق منبره ليقول للناس بأعلى صوته :

ـ (أعلن لكم أن القرآن ليس بمخلوق ، لأن المخلوق فان وحاشا لكتاب الله أن يعد في الفانين) .

رِجَالٌ صَدَقُوا
سَعيدُ بْنُ المُسَيَّب

رجال صدقوا
سعيد بن المسيب

رجل به بعض الغرور كان يهم بخلع نعليه أمام مسجد المصطفى ﷺ . والناس حين ينظرون إليه نظرة الدهشة لا يثيرهم منه هذا التأنق الظاهر أو هذا الملبس الفاخر ، وإنما الذي يثيرهم ويدفعهم إلى التساؤ ل أن هذا الرجل بخدمه وحشمه ، بغروره وكبريائه ، قد جاء ليجلس كواحد من الفقراء في مجلس الشيخ الزاهد ، التقي الورع : (سعيد بن المسيب)..

وقد تكررت هذه الصورة حتى ألف الناس هذا المنظر واعتادوه في حلقات العلم التي كان يعقدها الشيخ سعيد . . حتى ان الناظر المتفحص لمجلسه يرى فيه صورة حقيقية من صور الديمقراطية في الإسلام، ويرى فيه سماحة الإسلام كما يجب أن تكون ، وكيف أن الناس صغيرهم وكبيرهم ، وعظيمهم وحقيرهم ، أمام طلب العلم سواسية . .

وللشيخ في مجلسه ذاك تلامذة وأبناء ، بعضهم يكبره في

السن وبعضهم دون سنه بقليل، والآخرون في عمر الزهور لو كانوا في زماننا هذا لما شاهدناهم إلا بين الحانات ودور اللهو والمجون .

ذاك يا صاح مجلس فيه بعض ما كان لمجالس الرسول يوم ولد الإسلام ، فلو كنت من طلاب العلم المهرجين المتبجحين لما كان لك في المجلس نصيب ولا في الرجل وتقواه أدنى أمل .

وما كان ذلك لعصا يمسكها الرجل في يده يضرب بها المشاغبين .

وإنما لكلام الرجل روعة تحس معها أنك في عالم آخر ليست فيه إلا عصا السماء تضرب المشاغبين واللؤماء ، ولشيخوخة الرجل هيبة في النفوس ، لا هي من هيبة الملوك وظلمهم ، أو الحروب وويلاتها ، وإنما هي مزيج تكامل له من كل هيبة هيبة ، فكأنك وأنت تنصت إلى الرجل تنصت إلى ملك في مملكته ، وهو يلقي أوامره المشددة إلى عماله المطيعين له من زاوية عدله ، لا من زاوية ظلمه ، وتحسّ من الرجل إلى جانب ذلك هيبة الحرب الضروس ، وكأن كلمات الرجل وهي تخرج من فيه قذائف مدمرة يلعنُ بها الدنيا وطلابها ، وظلم الظالمين ، وكل ما يمت إلى معصية الله بحبل أو صلة .

والشيخ سعيد إذا انخرط في سلك حديثه لا تحس منه إنساناً يتكلم من جعبته ، وإنما تحس كأن نبياً يقف أمامك يستلهم وحيه ويتحدث بما يوحي إليه به ، فحديث الرجل وشرحه هو شرح علوي مستقى من منابع النبوة !! فإذا حدث الشيخ يوماً بشرح حديث أو آية استنبط منها معان لو قسم الإعجاز البياني إلى قسمين . . قسم التنزيل الرباني ، وقسم البيان البشري لكان للرجل قسم البيان البشري بلا منازع أو مجادل .

وناهيك برجل وهب للخالق نفسه فلا يقول إلا لله ولا يستلهم إلا من الله ، ولا يتكلم إلا باسم الله .

* * *

وقف سعيد مرة وقفة من وقفاته تلك . . وأخذ يتحدث إلى الناس ويقول لهم :

ـ أتعرفون أن غضب الله لاحق بكم ، وما ذاك إلا لأن سنة نبيه قد ضاعت بينكم ، والرحمة قد نزعت من قلوبكم ، وتكالبتم على حب التفاخر بالأنساب والأموال ، وإن أحدكم لو خير بين أن يتزوج من سلالة النبي أو يزوج لهم أو أن يتزوج من أولياء الأمر وأصحاب الحكم أو يزوج لهم ، لغلبه شيطان الدنيا وأضله هواه واختار الثانية ، وإني لأراكم تؤثرون لبناتكم كل ذي مال ونسب وليس كل ذي علم

وأدب ، وأراكم تغالون في المهور وتطلبون منها الباهظ ، وتؤثرون الكثير منها على القليل ، وفي ذلك كما يعلم الله انتقاص لإنسانية بناتكم المؤمنات . حيث تضعونهن موضع السلعة التي يشتط في طلب ثمنها ، وفي ذلك دليل على ضعف إيمانكم ومخالفتكم لأوامر نبينا ﷺ .

واسترسل الشيخ سعيد في حديثه وانخرط في كل أسلاكه . .

وذهل الحاضرون من وقع هذا الكلام في نفوسهم . . وانتقلوا بدورهم إلى عالم الروحانية الصافي وطأطأوا رؤوسهم وبدوا وكأنهم ما أصابوا من الدنيا وما أصابت الدنيا منهم .

* * *

وفي هذه اللحظات الربانية كان يجلس في ذيل المجلس رجلان . . لا تبدو عليهما مظاهر احترام قدسية المسجد وتعظيمه ، وكأنهما ليسا في مجلس علم هذه سماته ، يتهامسان آونة ويتغامزان أخرى ، ويبتسمان ساعة ويتسامران ثانية كأن الله طمس على قلبيهما فهما عن العلم معرضان ، وأعمى بصائرهما فهما لا يفقهان . وفهم الشيخ سعيد ما وظيفة هذين وما حقيقتهما ، وبحاسته الإسلامية أدرك ماذا يقولان وعن أي شيء يتغامزان ، وأيقن أنهما من رجال عبد الملك بن مروان جاءا ليشوها صورة مجلسه الكريم . .

وبلغت وقاحة واحد منهما مبلغها حين صاح مقاطعاً حديث الشيخ قائلاً : ـ

إنك هنا في المسجد تمثل دور الشيخ الزاهد ، بينما أنت في السوق تجمع المال جمعاً ، وإن ابنتك يتسابق اليها العظماء ، وما أظنك إلا مزوجها أحدهم ، ولم لا تزوجها واحداً من الفقراء ؟

وهاج الحاضرون وصاحوا غضباً ، ونهض بعضهم محاولاً إيذاء الرجلين . وعلا صوت يقول : إن الشيخ على النقيض من ذلك ، وإن حادثة رفضه ثلاثين ألف درهم ، ورفضه كل هبات عبدالملك بن مروان ، تدل على أنه غير لاهث وراء جمع المال .

وقال آخرون : إن تاريخ زهد الرجل وهبته نفسه لله وعباداته لا يجوز أن يقال معها عن الرجل هذا الكلام ، واختلطت الكلمات ببعضها ، والشيخ واقف لا يتكلم ، وكأنه يستجمع أطراف حديثه أو ينتظر الإلهام بالجواب !!

وسكت الناس وانتظروا . . وتكلم الشيخ وأرهف الناس أسماعهم له . . حيث قال :

ـ الله . . . الله . . . !! إن الدنيا حقيرة وهي إلى كل حقير أميل وأحب ، وأحقر منها من أخذها بغير حقها وطلبها

من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها .

أيها الناس : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلم إلا بالإنكار عليهم في قلوبكم ، حتى لا تحبط أعمالكم ، يد الله فوق الجميع ، فمن رفع نفسه ووضع غيره خفضه الله ، الناس تحت كنف الله يجازون بأعمالهم ، فإذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه فبدت للناس عورته ، الله . . . الله . . . !! . . . إياكم وذكر الناس بما ليس فيهم ورميهم بما لم يفعلوا .

والله لو طلبت جمع المال لأتاني مسرعاً .

وقد رأيتموني بينكم أبيع الزيت في السوق بدرهم ودريهمات ، وما فضلت على ذلك عطاء الخليفة من الآلاف والمئات .

والله ما قبلت ، ولن أقبل أن تتزوج ابنتي عظيماً من العظماء أو وزيراً من الوزراء والأيام القادمة تريكم برهان ذلك . . الله . . الله . .

وانفض المجلس ، وخرج الناس يتحدثون بكلام الشيخ سعيد ، وبمنزلته في نفوسهم . وخرج الرجلان يحملان كل خيبة وفشل !!

* * *

وأقبل يوم بويع فيه الوليد بن عبدالملك وليّ عهد للخلافة ، وطلب من الشيخ سعيد أن يبايع ، ولكنه رفض وصمم على الرفض ، وأبى كل الإباء إلا أن يعلن : أن هذا الوليد غير جدير بالخلافة ، وأن هناك من هو أجدر بها منه .

وكان جزاء الشيخ أن ضرب وعذب وطيف به في الأسواق مهاناً ، وهو باق على تصميمه وعزمه .

ـ وأقبل يوم آخر طلب الخليفةفيـه من الشيخ سعيـد أن يزوج ابنته من ابنه وولي عهده (الوليد) وأبى الشيخ ، ورفض ، وضرب ، وعذب ، وهو يقول بملء فيه . : لا . . لا . . وبقي أيضاً على تصميمه وعزمه .

ـ وتكررت مواقف الشيخ سعيد بن المسيب ، وذاع في الآفاق صيته ، واجتمع الرجلان المشاغبان المأجوران ذات يوم في مجلس من مجالسهما .

وأسرّ أحدهما لثانيهما : ـ

ـ ألا ترى معي أننا ظلمنا الشيخ وبعنا ديننا مقابل دراهم يعطيها لنا الخليفة ، أما آن لنا أن نتوب وأن نرجع إلى حظيرة الحق ؟

وردّ عليه الثاني قائلاً : لقد ساورتني هذه الأوهام ، وفكرت فيها فكرت فيه ، ولكن انتظر حتى تكون حادثة

للرجل خالدة فنعلن التوبة يومها ، ونستسمحه ونرجع إلى الله . . .

وأقبلت حادثة الحادثات ، وآية تقوى الرجل وعمله بما يقول ، وجلس الرجلان المشاغبان ـ فقال الأول للثاني : ـ

ـ أما سمعت عن الحادثة ؟

ـ أية حادثة !! ؟

ـ إن الشيخ سعيداً قد زوج ابنته !!

ـ أمن الوليد بن عبد الملك ؟

ـ لا . . من أبي وداعة . . .

ومن يكون أبو وداعة . . أهو كبير من الكبراء ؟

ـ لا . . إن أبا وداعة طالب فقير كان يواظب على مجالس الشيوخ . . .

وقد تزوج مرة وماتت زوجته .

ـ يا الله . . تزوج مرة وماتت زوجته وطالب فقير لا مال له . .

إذن وكيف دفع المهر ؟

ـ لقد زوجها الشيخ إياه بدرهم وخاتم من حديد ، بل وأخذها من يدها إلى منزل أبي وداعة وسلمها إياه .

ـ أتصدق في حديثك ؟

ـ نعم والله أصدق . .

(وينتحب الرجل الثاني ويبكي بكاء مراً فيقول له الرجل الأول) :

ـ ما يبكيك في هذا يا صاحبي ؟

فيرد عليه الرجل الثاني قائلاً :

ـ والله لبكاء اليوم خير من عذاب الغد ، أترضى أن نبيع نحن ديننا إلى هذا الحد ويشتريه آخرون إلى هذا الحد ، لقد تجنينا على الحقيقة وظلمنا الرجل .

وها هي ذي الحقائق تبين لنا مدى جرمنا ، وتؤكد أن هذا الرجل فلتة من الفلتات ، ونادرة من نوادر التاريخ ، والله إني لأشعر بتقريع ضميري ، وإن العار الذي لحق بي وبك لا بد وأن يسجله التاريخ . . . فتبقى سيرتنا في الناس سيرة سيئة ، ونكتب عند الله من المعتدين .

ـ إيه يا أخي : لقد هولت في تجسيم خطبنا ، حتى لكأني أشعر به جرم الدنيا والآخرة، قل لي بربك ماذا نفعل ؟ . .

لقد بدأ ضميري يستيقظ . . هل عندك من حل ؟

ـ نعم . . هيا بنا فلنذهب إلى مجلس الشيخ سعيد ، ذلك الرجل الطيب القلب ، فإن عفا عنا فتلك رحمة من الله وإلا فإن مصيرنا ولا شك غضب الله وعقابه، هيا بنا هيا .

وفي مجلس الشيخ . . كان الرجلان يجلسان وعلى خديهما أثر البكاء ، وفي قلبيهما سكون وخشوع ! !

ورأى الشيخ سعيد من الرجلين أثر الذلة وإطراقة طالب العفو . وبحاسة الرجل الصادقة علم لماذا حضرا هذه المرة ! فانفرجت أساريره فرحا إذ هدى الله على يديه رجلين بعد غيهما .

وبدأ الشيخ في حديثه ، وانتحى به وجهة يخاطب بها الرجلين بطريق غير مباشر كي يهوّن عليهما الأمر فقال : ـ

ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه ، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب الله نقصه لفضله ، والتوبة والرجوع إلى الحق أفضل الفضائل .

وهنا نهض الرجلان إلى الشيخ فاعتذرا إليه وطلبا الصفح . . فقبل العالم الورع ودعا لهما بالمغفرة والقبول .

واستمر ـ بعد ذلك ـ في تسجيل كلماته اللؤلؤية ، واستمر التاريخ في تسجيل أزهى آيات الشجاعة في الإسلام :

للعالم العامل . . للمجتهد الورع . .

للشيخ الجليل الزاهد (سعيد بن المسيب) ! !

الفقيه القائد

الفقيه القائد

في فترة من فترات القوة ، وخلال عهد من عهود العزة التي نعمت بها أرض تونس المسلمة ، وإبان حكم زياد الله بن الأغلب لهذه الأرض الفتية ، وفي عام « ٨٧٧ م » بالتحديد وصلت إلى زيادة الله (حاكم تونس المذكور) رسالة من رجل صقلي يدعى (فيمي) يدعوه فيها لغزو جزيرة صقلية ، ويعدد في رسالته مآثر فتحه لها والمكاسب التي سيجنيها من وراء الفتح .

وشغلت هذه الرسالة فكر زيادة الله ، وفازت بجل تفكيره ، فلم ير بدأً من أن يستشير قواده ووزراءه ، فأرسل إليهم يدعوهم للاجتماع فحضروا جميعاً لتوهم .

وفي قصر الأمير زيادة الله جلس الوزراء والقواد ينتظرون حضور الأمير ويتكهنون بالسبب الذي جمعهم الأمير من أجله ، ولم يجل ببال أحدهم السبب الحقيقي الذي حضروا من أجله ، وما هي إلا لحظات قضاها الجميع في مناقشات

ومحاورات حتى أشرقت عليهم طلعة الأمير فقاموا له إجلالاً وأفسحوا الطريق إكباراً واحتراماً . . .

وجلس الأمير متصدراً المجلس ثم أخرج رسالة من جيبه وأمر أحد وزرائه بأن يقرأها على السادة المجتمعين ، وفض الوزير الرسالة ، وبدأ يقرؤها بصوت عال ، وفهم الوزراء أنها دعوة لغزو صقلية ، وفهموا أيضاً ماذا يقصد الأمير من جمعهم ومن إسماعهم لهذه الرسالة ، واستمروا بعد سماع الرسالة في خلاف ونقاش ، فمن قائل بالذهاب ، ومن قائل بالتريث ولكل منهم أدلته وبراهينه ، ومضوا على ذلك قرابة ساعة إلى أن انتهوا إلى ضرورة الذهاب لغزو صقلية ، وهنا عرض عليهم أمر آخر قائلاً :

ومن تختارونه قائداً لهذه الحملة البحرية الشاقة ؟ واختلفت بهم الآراء ثانية ، وما ان ذكر اسم (أسد بن الفرات) على فم أحد الوزراء حتى شخصت أبصارهم وكأنهم وجدوا ضالتهم أو عثروا على مطلبهم .

* * *

أمر الأمير زيادة الله فقيه دولته وقاضيها (أسد بن الفرات) بأن يجهز حملة بحرية لغزو صقلية يحمل تبعاتها وتكون على مسئوليته .

وأراد أسد أن يظهر كفاءته فأمر بإعداد تسعمائة فارس

وعشرة آلاف رجل ، ثم أعد سفنه وزودها بكل ما يسهل لها مهمتها ، واختار لها كل مقومات النصر ، من خيرة الرجال ، وعظيم المؤن وأقوى الأسلحة ، وعلى الفور سار بجيشه في مياه البحر الأبيض المتوسط متجهاً صوب صقلية فوصلها بعد أيام من مسيره .

وأرسى أسد سفنه في ثغر (مازارا) الواقع بطرف صقلية الغربي ، ثم سار بجيشه إلى شرق الجزيرة ، وهناك التقى بجيوش الصقليين بزعامة قائدهم ـ بلاطة ـ ونشبت بينهم معركة عنيفة كان النصر فيها حليف المسلمين ، وهزم الصقليون وارتدوا على أعقابهم خاسرين .

وقد غنم المسلمون كل أسلابهم وأموالهم وقتلوا بلاطة قائد الصقليين بعد أن حاول الفرار ، واستولوا على عدة حصون كانت بأيديهم ، وتوغلوا بعد النصر في سيرهم إلى أن وصلوا إلى أكبر قلعة للمشركين وتدعى (كلتاجيروتي) وفيها احتشدت كل قوى الصقليين لمقاتلة المسلمين وأميرهم الذائع الصيت أسد بن الفرات .

وقد حاولوا بادىء ذي بدء خداعه بالمهادنة ، وفعلاً استطاعوا أن يكسبوا أسبوعاً استعدوا فيه لمقاتلته ، ولكنه عرف حيلتهم فانقض على حصنهم .

إلا أنهم كانوا في قوة ومنعة فاستعصوا عليه ، فأعاد الكرة

مرات ومرات وكانت النتيجة واحدة .

وهنا كانت قوة المسلمين قد بدأت تخور ، ولولا قوة إيمان أسد بن الفرات بالله ولولا صلابته لكانت هزيمة المسلمين واقعة لا ريب فيها .

وفي الوقت الذي حاول فيه أسد استرداد قوته ظهرت في سماء معركته غيوم حالكة السواد ، لولا بقية أمل في الله اعتمد عليها وثقة في وعد الله ونصره أملها، ليئس وقنط أكثر وأكثر . . فلقد أتت الأنباء تؤكد أن أسطولاً بيزنطياً قد جاء لمساعدة أهل الجزيرة ، وانه قد وصل فعلاً إلى حدودها ، وليس هذا فقط فلقد وقع وباء بجيش المسلمين فتك بخيرته ، وليس هذا فقط فالمصائب إذا انفتح بابها كان من الصعب إغلاقه إلا بلطف الله . .

فلقد أصيب أسد بدوره بنفس الوباء ، وأمام هذه الضربات وقف أسد رابط الجأش غير وجل ولا هياب ، يناضل بكل قوة ويدفع عن المسلمين الأذى بشتى الأسلحة ، ويبث فيهم من روحه ويحذرهم مغبة التسليم ويصيح فيهم :

الموت خير من الاستسلام لأعداء الله ، ثقوا أيها الجنود أن الله لن يخذلكم مهما كانت الصدمات وعلقوا على الله آمالكم فهو نعم المعين .

* * *

وبمثل هذه المعاني القوية استطاع أسد أن يحمي جيشه من الهزيمة والاستسلام،وفي ألوقت الذي بلغت فيه روح المؤمنين الحلقوم : أتت أنباء تؤكد ان اسطولاً اندلسياً قد جاء لمساعدتهم .

وليس هذا فقط ، فلقد أكدت الأنباء أن إمدادات من إفريقيا قد جاءت بدورها تناصرهم وتشد من أزرهم .

ونشط جيش المسلمين وشمّر عن ساعد الجد وبدا كأنه ما كان من قريب يعيش في أسوأ ظروف !!

ووسط هذا الجو من الأمل . لاحت في الأفق نجمة تتهاوى كأنها تريد الأفول او الاختباء . . وفعلاً قرّ قرار الله واختبأت ، فارتعدت فرائص المسلمين ، وبكى الجيش بأسره . . . وودع بالدموع جثمان الفقيه القائد . . البطل المسلم (أسد بن الفرات) حيث واروه التراب .

* * *

(تولى قيادة جيش المسلمين بعد أسد) قائد فطن يسمى (محمد بن أبي الجواري) ، (وبعد توليته بأيام قليلة وصلت إمدادات الأندلس المغامرة وتلتها إمدادات إفريقيا) ، (وهبت كل القوات تحت قيادته) تناضل وتذود عن نفسها ، (وتحتل المواقع التي تصل إليها ، بعد أن تقضي على قوات الصقليين فيها) .

(وما إن أقبل عام (٨٧٨ م) حتى وقعت كل المدن الصقلية في يد المسلمين) وهناك ... هناك (وأمام قبر أسد ابن الفرات وقف) قائد المسلمين بعده (محمد بن أبي الجواري يخاطبه قائلا :

(لقد انتصرنا يا ابن الفرات ووالله لولاك بعد الله ما انتصرنا .. وانحدرت دمعة على خديه ، وأردف قائلاً ... ولولا الليالي الحالكة التي وقفت فيها ما نجونا ، ألا فلتنعم بالفردوس في الآخرة والخلود في الدنيا ، ثم ودعه بالتحية) . وعاد .. عاد ليوطد دعائم مملكة الإسلام في صقلية « تلك التي أنشأها أسد بن الفرات » الفقيه القائد !!

دِفَاع عَنِ الكَرَامَة
زَيد بن عَلي في
مَواجَهَة هِشَام بن عَبد المَلك

دِفاع عن الكرامة
زيد بن علي في
مواجهة هشام بن عبد الملك

ـ أيها الأخ الكريم . . إنني زيد بن علي ، وأطمع في الدخول على هشام بن عبد الملك ، فأذن لي . . .

ـ انتظر يا سيدي حتى أستأذنه فإن أذن فبها ونعمت ، وإلا فلست إلا حاجباً مأموراً لا رأي لي . . .

وانتظر الإمام زيد بن علي طويلاً حتى عاد الحاجب فأخبره برفض هشام دخوله عليه .

ولكن الإمام لم ييأس ، وعاود الكرة مرات ومرات حتى أذن له هشام بن عبد الملك بالدخول فدخل ! !

ولم يكن هشام بالرجل المهذب فيفسح للإمام في مجلسه ولكنه عمد إلى أن يجلس الإمام في نهاية الصف ، وهنا شعر الإمام بما حاوله هشام ، فأراد ثأراً لكرامته أن يدفع عنه هذا الغبن في المعاملة . . فقال موجهاً كلامه لهشام : ـ

أيها الخليفة . . لقد فهمت ما تريد وبودي أن أقول لك :

اتق الله ، فليس بعاقل من يتعاظم عن تقوى الله ولا يصغر أحد مع تقوى الله . .

فرد هشام عليه قائلاً :

اسكت لا أم لك . . . أنت الذي تنازعني الخلافة وتنسى أنك ابن أمة .

ورد عليه زيد قائلاً :

اسمع أيها الخليفة . . أما أن أكون ابن أمة فليس ذلك بخادش لكرامتي وقد كان إسماعيل بن إبراهيم - نبي الله - ابن أمة فما عابه أحد بذلك ، ويكفيني من الفخر أن رسول الله ﷺ جدي وعلي بن أبي طالب أبي ، فأخبرني أنت من يكون جدك ؟ ومن يكون أبوك . . ؟ فزجر هشام وصاح به :

- أخرج . . اخرج . . أتسبني في مجلسي وبين أهلي . . إلا تخرج زجحت بك في سجن لا يرى فيه النور .

فرد عليه الإمام قائلاً : سأخرج أيها الخليفة ثم لا أكون إلا حيث تكره وحيث تريدني أهواؤك ألا أكون .

* * *

وخرج الإمام زيد بن علي ، والهمّ آخذ منه كل مأخذ وهو يفكر ماذا يفعل ؟

وبأي وسيلة يستطيع الانتصار على هذا الخليفة الذي حاول جاهداً إصلاحه فلم يفلح ، وقال لنفسه وهو في الطريق يحاورها ويداورها . . عسى أن يصل إلى حل يحسم به موقفه ترى يا نفس . . بمن أستعين ؟

أبمصر إنها خاضعة تماماً لهشام ، أم أستعين بالحجاز ؟ إنها كذلك، أم ببلاد الشام ؟ إنها مقر هشام ومقر قيادته .

إذن بمن أستعين ؟ . . بمن أستعين ؟ . . آه يا ربي . . لقد وجدتها . . وجدتها . . إنها العراق . . العراق !! ولكن أهل العراق هم الذين خذلوا الحسين وهم أهل شقاق ونفاق . . إذن فبمن أستعين غيرهم ؟ . . ليس لي إلا هم ، والنتيجة : سأستعين بهم مهما كانت العواقب والله المعين .

وذهب زيد إلى (بغداد) . وليته ما ذهب، ذهب إلى قوم كلامهم بالليل يمحوه النهار ، وكلامهم بالنهار يتوه وسط ظلمات الليل فلا عهد لهم ولا ميثاق . . . ذهب إليهم وهو يعلم كل هذا ويعتقده ، ولكنه كسابح في بحر لجى يتعلق بأي خيط من الأمل كي يمسك به ، وما إن وصل زيد إلى الكوفة والبصرة حتى استقبله أهل كل منهما استقبالاً حافلاً ورحبوا به أي ترحيب ، واستبشر زيد بن علي خيراً ، وأخبرهم بما اعتزمه من كفاح ونضال ضد هشام الظالم ،

وحثهم على مؤازرته والنهوض معه بهذا العبء وكان مما قاله لهم :

إنني أدعوكم إلى كتاب الله وسنةرسوله واعطاء كل ذي حق حقه ، أتبايعونني على ذلك ؟ فبايعه أربعون ألفاً من العراقيين على ذلك ، وكاد زيد يطمئن لسلامة موقفه ، حتى كان ذلك اليوم الذي هب فيه والي الكوفة بأمر من هشام بن عبد الملك يطالب زيداً بالبيعة لهشام والخضوع التام له ، وإلا فستكون الحرب هي الفاصلة بينهما !!

وبالطبع رفض زيد بن علي ما عرضه الوالي ، وأخبره بكل شمم وإباء أنه يرفض البيعة ، ويقبل القتال ما دام هو الحل الثاني بعد الخضوع والمبايعة ، وبدأ زيد يخبر من بايعوه بما حدث وأنهم يجب أن يكونوا على أهبة الاستعداد ، ورأى مبايعوه الصدق في كلامه ، وأيقنوا أن ساعة القتال قد دنت ، وأن الانباء التي أتت من هشام تثبت ذلك وتؤكده ، وبدأت بوادر الشر والمكر والخداع في أعينهم تجاه زيد بن علي ، وحاولوا بكل الطرق ، وبكثير من المجادلات وعمليات التهرب أن يفلتوا من المبايعة ، وضيق زيد الخناق عليهم بما أوتي من فصاحة القول وقوة الحجة ، ولما أن يئسوا من التخلص أعلنوا التخلّي عنه مجاهرة ، وتركوا زيداً وحده في الميدان ، إلا من أربعمائة أغلبهم قد ناهز الخمسين من عمره

فساء الموقف ، وتحرج زيد بن علي ، وأخذت منه الظنون كل مأخذ ، ولكنه أمام ما وجده من تصميم ، ومن تضحيات هؤلاء الأربعمائة صمم على أن يدخل المعركة مهما كانت النتائج والظروف !!

* * *

وفي يوم من أيام عام ١٢٢ هجرية بدأت طلائع جيش هشام تظهر في الميدان بغرورها وكبريائها واعتدادها بأسلحتها ، ونزل إليها زيد بكل قوة يضرب يميناً ويساراً ، ووراءه هذا العدد القليل من الناس يستميتون بدورهم في القتال حتى استطاعوا أن يقتلوا سبعين من جيش هشام !!

ولكن قلة كهذه كيف يمكن أن تقف أمام هذا الجيش الذي يعد بعشرات الآلاف من الجنود !! فما لبثت المعركة أن انجلت عن قتل زيد بن علي زين العابدين بسهم أصابه ، وهو يقاتل في المعركة ، وأسر ما بقي من أصحابه على قيد الحياة !!

وبلغ هشام ذلك ففرح به أي فرح ، وظن أن دولته قد قويت شوكتها بموت عدوها اللدود ، ولم يكتف بفرحه بهذا النصر الوعر ، فأمر بأن يمثل بزيد بعد موته ، وأن يصلب ، وعلق زيد على خشبة الموت مصلوباً ، ووقف أحد أعدائه يخاطبه وهو مصلوب بصوت عال : الآن ثأرنا منكم آل

هاشم وثبتت دولتنا وسدناكم كما سدنا العالمين .

ورد عليه رجل مستتر من أنصار زيد بن علي قائلاً :

لو دريت الحقيقة أيها المخدوع لأدركت أن هذا بداية زوال دولتكم ، فدولة من الضعف بحيث تتأثر من فرد بعد موته وهو لا يملك أدنى مقاومة ، إنها لدولة هزيلة لا بد زائلة ، وإن أحياني الله وأحياك فسوف يأتي اليوم الذي أذكر لك فيه ما قلته الآن ، وترى بعيني رأسك أمراء دولتكم ، وقد فعل بهم ما فعلوه بنا . .

* * *

ودارت الأيام ، ومضت عشرة أعوام بعد هذه الحادثة المفزعة ، وفي هذا المكان عينه وقف نفس الرجلين ، ليشهدا مصرع أمراء بني أمية ومصرع دولتهم . . لأن الدم لا يعالج إلا بالدم !! وليشهدا أنواع التنكيل والتعذيب التي حاقت بالأمويين ، وغمز الرجل الثاني للأول قائلاً :

أفهمت يا هذا ؟!! أأدركت أن دولة الظلم لا بد أن تزول . . وأنه كما تدين تدان ، أعقلت معنى قوله تعالى :

﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء . .﴾

(والعاقبة دائماً للمتقين) .

سيرة بطل
محمد بن القاسم الثقفي

أتعرف أيها الأمير أن قواداً قبلك حاولوا ما تحاوله اليوم فباءوا جميعاً بالفشل ؟ .

- أعرف ذلك جيداً ولكن شتان بيني وبينهم .

- لا . . يا سيدي الأمير لقد كانوا أكثر منك عدداً وعدة .

- ليس يعنيني العدد والعدة لأني لا أؤمن بمثل هذه المقاييس ، وإنما أؤمن بمقاييس أخرى لأهميتها خطورة تفوق عندي العدد والعدة .

- أفصح يا سيدي القائد فلم أفهم بعد .

- إنني أملك طاقة من الإيمان برسالتي ومبدئي فوق ما يملكه السابقون ، إنني أحمل روحي على كفي أقذف بها المشركين رخيصة في سبيل الله ، وهي آخر ما أفكر فيه ، أما هم فأول ما يعنيهم أرواحهم وأموالهم .

- إذن أنت مصمم على اقتحام ثغر السند وغزوه ؟

- نعم إن شاء الله رب العالمين .

* * *

دارت هذه المناقشة بين محمد بن القاسم الثقفي أحد قواد الوليد بن عبد الملك ، وبين صاحب من أصحابه ، على إثرها قام ابن القاسم بتجهيز جيش عدته عشرون ألفاً من المؤمنين

الأشداء ، خرج به غازياً بلاد السند ، تلك التي استعصت على كثير من القواد والملوك .

وما إن وصل ابن القاسم إلى أول مكان من تلك البلاد ويسمى (الديبل) وفيه صنم كبير يعبده أهل السند ، حتى نصب مجانيقه وانهال على الصنم كسراً وتحطيماً ، ثم تابع سيره قاصداً عظيم السند ـ ويدعى زاهر ـ فما إن علم الأخير بمقدمه حتى أعد له جيشاً جراراً تقدمته المئات من الفيلة ، فما إن نظر المسلمون إلى هذا الجيش حتى خفقت قلوبهم ، لا لأنهم لم يتعودوا حرب القلة مع الكثرة ، بل لأنهم تعودوا حرب الإنسان مع الإنسان ، أما أن يكون الإنسان مع الفيلة ، فهذا جديد عليهم !!

ورأى قائدهم ذلك الوجوم الذي أطبق على وجوههم ، فوضع أصبعه على فمه ، ودارت برأسه معركة هائلة ذكر فيها قول صاحبه له :

« إن قواداً قبل حاولوا ما ستحاوله اليوم فباءوا جميعاً بالفشل . .

ولكن . . أيقف هو بدوره كما وقف السابقون ؟!

إذن فما هذا التشدق بالإيمان و . . و . . و . . لا لا . . لن أقف مكتوف اليدين لأن هذا ليس من شيمتي .

لا بد أن أفعل شيئاً مهما كانت الظروف .

أعدوا النفط وأشعلوا فيه النيران ،وقابلوا أفيالهم به ، والله معكم ولن يتركم أعمالكم .

وانطلق هو كالمارد متقدماً الصفوف مقتحماً جيوش أعدائه ، ضارباً بكل قوة وبمن معه من جنود الله ـ أعداء الله . . واستبسل جنوده من خلفه حتى لكأنهم لم يكن على وجوههم الوجوم من قبل .

وانطلق محمد بن القاسم غير هياب ولا وجل حتى لاح في الأفق بشير النصر ، وولى المشركون الأدبار .

فسجل التاريخ أن فتح الإسلام لبلاد السند قد تم على يد محمد بن القاسم الثقفي . . .

* * *

وعاد ابن القاسم وقد ظن أن الاقدار واتته وأن السعادة أتته ، وأي سعادة بعد هذا ؟؟

قائد شاب لما يبلغ الثالثة والعشرين من عمره يفتح ما عجز عنه الفاتحون !!

وأشرف الموكب على مدينة بغداد سعيداً بنصر الله ، وقائده الشاب في أحلى صوره وأجمل مظاهره ، ونظر القائد

عن كثب ، وأمعن النظر في المدينة التي ظنها ستخرج عن بكرة أبيها تنتظره ، فها هو ذا لا يجد منها إلا عبوساً وفتوراً ! !

وكاد يلوي عنان فرسه ليعود من حيث أتى لولا أنه وجد أبواب المدينة قد فتحت على مصراعيها ، وأمامها رسول يدعوه لمقابلة والي العراق الجديد (يزيد بن أبي كبشة) وتقدم ابن القاسم من قصر الوالي الجديد فما هاله غير أصفاد وقيود توضع في يديه ، وجنود يسوقونه إلى سجن مؤلم يلقى فيه صنوفاً من العذاب وألواناً من التنكيل !!

إيه يا رب . . ماذا فعلت يا ابن القاسم ، وماذا أجرمت ؟!!

أي جريرة نسبت إليك وعملت الأحقاذ على إلصاقها بك حتى تساق هكذا مجرماً كباقي المجرمين ! !

لك العتبى يا إلهي ومنك العفو والرحمة . . فهذه هي ضريبة الجهاد على المصلحين وجزاء المجاهدين في عصرنا وفي بعض عصور الأولين ! !

وجلس ابن القاسم في سجنه المظلم صابراً لقضاء الله محتسباً عنده ما بذله في سبيل الإسلام . . وجاءه ذات يوم صوت من الخارج وهو في سجنه يأمره بالمثول أمام القضاة الذين تهيأوا لمحاكمته .

وذهل ابن القاسم وكاد يصعق وساءل نفسه : -

أي محاكمة ؟!! وأي قضاة ؟!! وأي جرائر ؟

ما كل هذه الخيالات !! أأنا في حلم أم في حقيقة !!

وجاءه صوت من أعماقه يرد عليه : لست في خيال يا ابن القاسم ، إنما هي حقيقة الأحقاد التي تربصت بك الدوائر ، وكالت لك التهم ولفقت لك الجرائم . .

لقد تغير الوالي الذي أرسلك بوال آخر لم يقدر لك جهادك ونضالك ، وإنما ظنك عميلاً للوالي السابق فأمر بك فسجنت ، ثم أمر فقدمت للمحاكمة ، ثم أمر فستموت ، فلا يغرّنك قضاة ومحكمة ، فحكم القوي قد نفذ ، فاصبر لقضاء الله ولا تكن من القانطين .

* * *

وسيق ابن القاسم إلى المحكمة ليسمع ضجيجاً وكلاماً ما فهم منه كلمة وكأنه ليس يعنيه ، ثم سيق مرة ثانية إلى جهة نائية ووراءه قوم بعضهم يبكي وبعضهم يضحك إلى أن وصل إلى بقعة من الأرض ليس فيها غير حبل ووتدين قد علق الحبل بينهما . . !!

ففهم ابن القاسم على الفور ما كان وما سيكون . . .

(وبينما هو ينتظر الصعود إلى حبل الموت إذ عن له أن ينظر إلى

هذا الحبل) فتطلع إليه من أرضه ، فوجده يهتز يميناً وشمالاً وكأنه يعارض هذا الحكم الجائر ويعلن عصيانه .

ثم نظر ابن القاسم إلى السماء فوجدها ملبدة بالغيوم تلبس ثوباً أسود قاتم اللون وقد أنذرت بالعواصف الهوجاء .

فقال ابن القاسم لنفسه :

والله إنها لعواصف حقاً ستقوم . .

إنها نذير ثورة عارمة سوف تثأر لدمي من أعدائي فما أتم ابن القاسم حديثه إلى نفسه حتى وجد عشرة من الرجال يقودونه إلى الحبل ، فقرأ ابن القاسم الشهادتين همساً ، وما كاد ينتهي منها حتى صعدت روحه إلى بارئها ! !

وطوى التاريخ صفحة من صفحات البطولة والتضحية . . في سبيل الله

صفحة عرف التاريخ أولها وأشاد به . . وغمض عليه آخرها . . فهو لا يجد لها تعليلاً . .

ورحم الله فاتح السند محمد بن القاسم الثقفي ! !

بُطُولَة وَأمَل
يوسُف بن تَاشِفِين

بُطُولة وَأمَل
يوسُف بن تَاشفِين

قال يوسف بن تاشفين لمحدثه :

ألا ترى معي أن الإسلام يمكن أن تقوم لأمه قائمة ، وأن قومه إذا اتحدوا وأخلصوا النية لله نصرهم الله على أعدائهم ورفع منزلتهم في العالمين ؟

وأجابه محدثه بهزء وسخرية :

يعجبني فيك الطموح وبعد الآمال ، غير أنك تطلب المحال وتنشد الخيال ، وإن أمم المسلمين المتنابذة المتصارعة لا يمكن أن تقوم لها ـ كماتدعي ـ قائمة . وظهر الغضب على وجه يوسف ، لكنه أجاب بلهجة المؤمن القوي مخاطباً محدثه : إسمع يا أخي إن المحال في عالمنا هذا هو الذي لم يحدث ولا يمكن ان يحدث ، لكن الذي تقول إنه محال قد حدث ووقع ، فلقد كان المسلمون في بداية أمرهم أمة واحدة ، جسداً واحداً لا تباغض ولا تشاحن بين أعضائه ، وإن أملي في الله الذي جمع دول الكفر كلها علينا في أيامنا هذه

أن يزيل ما بين المسلمين من تشاحن وفرقة ، حتى ينتصروا على أعدائهم .

ورد عليه محدثه قائلاً : إنه يا أخي يوسف كما تقول أمل وقلّ أن تتحقق الآمال الكبار. وانصرف يوسف إلى بيته وهو يفكر في كلمة الرجل : إن وحدة المسلمين كي ينتصروا على أعدائهم أمل . . أمل كبير . حقاً . . . وأي أمل ! !

* * *

وقع هذا الحديث ليوسف بن تاشفين وهو في العشرين من عمره ، وهذا الحديث على قصره ، كان له أكبر الأثر في تغيير مجرى حياته ، إذ رأى يوسف من واجبه أن يندمج في سلك الجندية حتى يؤدي للإسلام ضريبة الجهاد .

وكرت السنون ومرت الأيام . . . اليوم تلو اليوم .

وبلغ يوسف الأربعين ، وأتيح له أن ينظر لنفسه ذات يوم فوجد حياته تنصرم ، وهي كلما انصرمت أبعدت من أمله في تحقيق وحدة المسلمين كي ينتصروا على المسيحيين ، وأكدت صدق كلمة الرجل القائل له بأن الوحدة والنصر مجرد أمل ، وقلّ أن تتحقق الآمال .

وكاد يوسف يبكي لولا أن طبيعة البطولة الكامنة فيه منعته من ذلك ، إذ العويل والبكاء من طبيعة النساء ، وهوّن

على يوسف الخطب ثقته في الله ، وعلمه بأن مرتبة القيادة التي نالها في جيش ابن عمه أبي بكر بن عمر اللمتوني الصنهاجي سوف تفتح له أبواباً قد ينفذ منها إلى تحقيق آماله ، وعن طريق هذا الموقع سوف يحاول أن يعيد للمسلمين عزهم ورفعتهم إن شاء الله رب العالمين .

بهذا حدّث يوسف بن تاشفين نفسه . . .

ومرت عدة أعوام عزل نفسه بعدها متفرغاً للجهاد حاكم المغرب آنذاك أبوبكر بن عمر اللمتوني الذي أوصى أن يتولى الحكم بعده ابن عمه يوسف بن تاشفين !!

ووجد يوسف أن الفرصة قد سنحت ، وهو إذا لم يعمل كان من الذين يقولون ما لا يفعلون ، وخابت كل آماله الكبار !!

ولكن بأي شيء يبدأ يوسف المعركة ؟ لا بد له من مقر رئيسي يمثل دولة الإسلام التي يحاول أن يرفع بناءها ،ونهض فعلاً إلى بناء مدينة أسماها مراكش جعل منها عاصمة ملكه ومقر قيادته . . . وكانت مدينة مراكش قد بدأ تأسيسها ابن عمه أبو بكر بن عمر اللمتوني . .

فأتم يوسف البناء ، وجعلها حاضرة المغرب الأولى . . .

وفي بداية عام ٤٥٥ هـ بدأت معارك يوسف في سبيل

رفع راية الإسلام . فلقد أعد جيشاً قوياً فتياً هجم به على البلاد المجاورة لمراكش كفاس ، وطنجة ، واقتحم به حصون زناته وغمارة وغيرهما من المدن حتى تم له في مدة لا تتجاوز الخمسة عشر عاماً إنشاء دولة إسلامية تمتد من تونس شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى حدود السودان جنوباً . . .

ونظر يوسف إلى نفسه مرة ثانية فوجد حلمه قد تحقق بانشاء دولة إسلامية كبيرة !! وكاد يبلغ به الزهو والغرور مبلغاً كبيراً لولا أن صوتاً آخر من أصوات الضمير قد استيقظ في فؤاده . . وهاتفاً من أعماقه قد انبعث قائلاً له : وماذا يستفيد الإسلام من دولة قامت ، وبعد أيام تروح ، أو ملكاً شيد ، لا تلبث عادية الزمن أن تعدو عليه ، وإن فوق ذلك في باب خدمة الإسلام مراتب ودرجات عالية لا يجوز أن تذهب حياتك دون أن تقوم بها .

إن هناك . . . هناك على البعد إخوان لك أبناء الإسلام . . . يتحكم فيهم المسيحيون ، ويفتتون من وحدتهم ، ويضعون من قوتهم ، ويضربون دولتهم بكل قوة لا يجدون عوناً إذا استعانوا ، ولا غوثاً إذا طلبوا الغوث . . . إنهم هناك يرجون جهدك ويعقدون على دولتك الناشئة القوية كثيراً من الآمال ، إنهم هناك وراء البحر قابعون في الضفة الأخرى منه يدافعون عن بلادهم وإسلامهم قدر ما

يستطيعون ، بل وفوق طاقتهم فاعمل شيئاً من أجلهم ومد يدك اليهم .

وعندما وصل حديث يوسف مع نفسه إلى هذا الحد أرسل تنهيدة طويلة وذهب إلى فراشه كي ينال قسطه من الراحة ، وأثناء نومه عاودته الخواطر في شبه أجلام مزعجة ، جعلته يقوم من نومه فزعاً ، وجعلته يعاهد الله لئن أطال أجله فلا بد وأن يفعل شيئاً من أجل هؤلاء الأندلسيين القابعين وراء البحر الذين يتربص بهم النصارى من كل جانب !!

* * *

أصبح يوسف من نومه فما إن انتهى من صلاة الفجر ، وتناول فطوره وبدأ يستريح قليلاً حتى جاءه رسول ينبئه بمقدم وفد من بلاد الأندلس (القابعين وراء البحر) يحملون له نبأ هاماً ويرجون مقابلته في أقرب وقت . .

حدث يوسف نفسه : ترى أيكون وراء هؤلاء الرسل تفسير حلم الليلة ؟ . . أيكون وراءهم أمر جلل وخطب نزل . . ؟ . . لا داعي للتخمين ـ فلأذهب إليهم . . وسوف أعرف جلية الأمر . .

وذهب يوسف إليهم واستقبلهم أحسن استقبال ورحب بهم في بلاده وأدى إليهم واجب الضيافة ، وقدموا له كثيراً من الهدايا التي بعثها معهم أمير (اشبيلية) المعتمد بن عباد ،

وغيره من أمراء الأندلس ، وأعطوه رسالة المعتمد بن عباد التي يرجوه فيها العون ، ويطلب منه المساعدة في سبيل الإسلام ، وفي سبيل القضاء على أعدائهم النصارى المسيحيين ، ووعدهم يوسف خيراً وأعادهم إلى بلادهم مكرمين ، وقد ودعهم بعبارات الحب والتقدير .

وأخذ يوسف ينظر في الأمر على مهل ، وهنا كان عجب أصحاب يوسف منه .

لقد كانوا يعتقدون فيه خلاف ذلك . . فهم يدركون غيرته ويعرفون حبه لخدمة الإسلام والمسلمين إذن فما هذا التسويف منه إزاء إخوة مسلمين يستجيرون به ؟!! ولو علم أصحاب يوسف أنه إنما فعل ذلك تريثاً منه وضماناً للنصر ، وتأكداً من ان الأندلسيين القابعين وراء البحر . . سيتعاونون معه ولا يخذلونه إذا سارع إلى خدمتهم ونجدتهم - إذن لما عابوا عليه .

وفعلاً تحققت خطة يوسف ، واستطاع أن يحظى بضمان الجهاد معه إذا هب لنصرتهم . . . وعندئذ بادر فكوّن جيشاً قوياً مزوداً بكافة الأسلحة والمؤن ، وسار به عبر مضيق جبل طارق حيث وصل إلى جنوب بلاد الأندلس في شهر رجب من عام ٤٧٩ هجرية ، فانضمت إليه قوات ابن الأفطس ملك بطليوس ، وقوات ابن عباد ملك أشبيلية ، وغيرهما من

القوات ، وانتظم الجميع في جيش قوى تحت قيادة مؤمنة . .

* * *

وأقبل الرابع عشر من شهر رجب أي بعد وصوله إلى الأندلس بنصف شهر تقريباً وبدأت المعركة بين الجيشين (جيش المسلمين ، وجيش المسيحيين) هناك عند سهل يسمى (سهل الزلاقة) ، وهجم المسيحيون بقيادة قائدهم (الفونس السادس) على جيش المسلمين واخترقوا صفوفه ، وبذلوا كل ما يستطيعون من جهد ومن عرق !!

* * *

وكاد النصر يضيع من يد المسلمين لولا أن تدارك يوسف الموقف ، وجمع نخبة من جنوده وهجم على قلب الجيش المسيحي ، وأظهر من البطولة والشجاعة ما يقرب من الخيال ، وتبع يوسف جنود جيشه المتفرقون ، وأحاطوا بجيش المسيحيين ، واندمجوا في المعركة اندماجاً كلياً حتى أثخنوهم بالجراح ، وقضوا على الآلاف من المسيحيين ، وسارت خيل المسلمين في أبحر من دماء المسيحيين . . . وتوغل يوسف ووراءه الجيش في طريق المعركة المليء بالدماء . . واستمروا على توغلهم كثيراً حتى قضوا على معظم جيش المسيحيين ، ولم ينقذهم إلا إدبار النهار ، وإقبال الظلام .

وظل المسلمون يراقبونهم طوال الليل إلى أن أقبل النهار بضوئه ، وأشرقت شمس الصباح على العالمين ، فزحف جيش المسلمين نحو فلول المسيحيين الباقية فأسروا من أسروه وتتبعوا الفارين ، وعادوا بغنائم جمة ومكاسب بالغة .

ووقف التاريخ يدون النصر للمسلمين في تلك المعركة الخالدة الفاصلة بين قوة المسلمين وانتصارهم ، وضعف المسيحيين وهزيمتهم . .

وصاح المؤذن بأعلى صوته في الناس . . . الله أكبر . . . الله أكبر . . . حيّ على الفلاح . . حيّ على الفلاح .

ووقف يوسف بن تاشفين . . . ونظر إلى راية المسلمين التي بدأت ترتفع ، ثم نظر إلى نفسه . . . وذكر قول صاحبه له منذ خمسين سنة . . في مجمل حديثه معه : (إن وحدة المسلمين وانتصارهم أمل . . أي أمل . . وقل أن تتحقق الآمال .) فردد في نفسه . .

الحمد لله . . الحمد لله . . لقد تحققت الآمال . . .

الغَوّاص المُجَاهِد
قِصَّةَ يُوسُفْ الغَوّاص

الغوَّاص المجَاهِد
قصّة يوُسفُ الغوّاص

منذ بداية شهر شعبان من عام ٥٨٥ هجرية ، والمسلمون في عكا يساندهم جيش صلاح الدين الأيوبي يقاتلون جميعاً حشود الافرنج الصليبيين الذين يحاصرون مدينتهم قتال الأبطال لا يألون جهداً ، ولا يملكون دماً أو مالاً إلا جادوا به وبذلوه . .

وامتد حصار الافرنج واشتد ساعدهم بالإمدادات الجمة التي كانت تصلهم من معظم دول أوربا ، وتوالت النكبات على المسلمين المحصورين في عكا ، فلم تعد المؤن تستطيع الوصول ، وقد فني معظم جيشهم ، وحل السأم والقنوط في النفوس ، فبلغت به روح المسلمين الحلقوم .

وسط هذا الجو من المصائب وبين هذه العواصف الهوجاء قرر زعماء المسلمين الاجتماع بأبناء الشعب كي يروا أثر هذه المصائب على نفوسهم ، وماذا يريدون وما هي مطالبهم ؟!!

ووقف أحد الزعماء يخطب في الجموع المحتشدة ويقول :

أيها المسلمون : أنتم ولا شك تعلمون ما نحن فيه ، وإنه ـ يعلم الله ـ امتحان صعب علينا حله ، فبتنا وإياكم لا ندري ما يأتي به الغد ، وإن غدا لناظره قريب ، وإنكم أمام طريقين : طريق جهنم وهو طريق العار والخزي في الدنيا والآخرة ، وطريق الجنة وهو طريق الشرف والعزة والكفاح ، فإما أن تستسلموا وحسابكم على الله ، وإما أن تقفوا موقف الأبطال البواسل فتفوزوا بإحدى الحسنيين ـ النصر أو الشهادة !!

وهاج الناس وماجوا ، وعلت صيحاتهم مطالبة باستمرار القتال ، ودوى الميدان بالتهليل والتكبير . .

وفي خضم هذا الضجيج انطلق صوت من بين الجموع قائلاً :

أيها القائد العظيم ، لقد اخترنا جميعاً طريق الجنة ، وسترى منا العجب العجاب ، فوالله الذي لا إله إلا هو، لئن أمرتنا أن نخوض هذا البحر ما أخلفنا أمرك قط .

وصاح به القائد : من أنت أيها الجندي اللبيب ؟!!

ـ أنا عيسى الغواص يا سيدي القائد .

ـ إحضر اليّ يا عيسى بعد انتهاء الاجتماع .

ـ سمعاً وطاعة يا سيدي القائد .

وعلى باب منزل القائد كان عيسى الغواص يستأذن في الدخول ، وعلى الفور أذن له وبعد أن رحب به القائد خاطبه بقوله :

ـ اسمع يا عيسى لقد رأيت فيك ما أتمناه في كل شاب مسلم ولا أكتمك أننا في حاجة إلى كثير من أمثالك ، أتجيد فناً من فنون البحار يا عيسى ؟

ـ نعم يا سيدي القائد أجيد السباحة إجادة تامة .

ـ إسمع يا عيسى لقد كنا على صلة تامة بقائدنا صلاح الدين ، أما وأن الحصار قد ضرب علينا فلم يعد باستطاعتنا ذلك : . . . أتستطيع خدمتنا في هذا المجال ؟ .

ـ بكل ثقة يا سيدي القائد . . ففي استطاعتي أن أسبح في الماء كما أسير في اليابس .

ـ إذن يبدأ عملنا من الغد بإذن الله فعليك أن تحضر إلينا إن شاء الله غداً .

* * *

وفي الغد جاء عيسى فأمر القائد بعض جنوده بتجهيزه فجهزوه ، وشدوا على وسطه حزاً ، وعلقوا في عنقه حقيبة صغيرة ، وأعطاه القائد رسائل يبلغها إلى صلاح الدين . وحملها عيسى . . . وسار يسبح في البحر حتى وصل إلى هدفه

(وكم يعجب الناس لرجل كعيسى يسير أميالاً في البحر في وقت ما درى العالم فيه فناً من فنون السباحة الحديثة ، ولكنه الإيمان الذي يدفع صاحبه إلى أعنف المعارك فينتصر عليها ويقحمه في أشد الغمرات فيخرج منها ظافراً . وهكذا كان إيمان صاحبنا عيسى رائده في عشرات الأميال التي قطعها عبر البحار ، وقائده في كل ما يطلب منه من خدمات لدينه الحنيف .

وظل أمر عيسى هكذا ... السفير بين المسلمين المحاصرين في عكا وبين صلاح الدين خارجها ... يقوم بحمل الرسائل لصلاح الدين ويعود بالأموال والأوامر منه .

وذات يوم خرج عيسى كعادته يحمل بعض الرسائل إلى صلاح الدين ليعود بالرد عليها بعد أن يوصلها له .

وانتظر المسلمون عودته وطالت مدة غيبته أكثر من ذي قبل ، وقلق المسلمون عليه واضطربت أعصابهم خوفاً وصاروا يخرجون كل يوم إلى شاطىء البحر ينظرون ويتأملون ويدعون الله ويبتهلون . . وعاد عيسى الغواص . . عاد عيسى لا بتلك الهيئة التي ذهب بها ولكنه عاد جسداً بالياً لا حياة فيه . . عاد جثة تتقاذفها الأمواج ويلعب بها الماء .

وهنا وقف المسلمون مذهولين ، وأطبق عليهم الصمت وعلت وجوههم الكآبة . . وانحنى أحدهم على جثة عيسى

ليرى ثلاثة آلاف دينار ويضع رسائل من صلاح الدين ما زالت معلقة في عنقه ..

فنظر المسلمون إلى الرجل الذي انحنى ، ونظر ذلك الرجل إلى المسلمين بعد ما رأى من عيسى ثم قال ودمعة تنحدر على خديه :

أيها المسلمون لقد مات عيسى الغواص ولكنه أبى إلا أن يؤدي الرسالة ميتاً كما أداها حياً فوارحمة الله عليه ..

فردد المسلمون :

رحمة الله عليه ... رحمة الله عليه .

بَطَل من غَرناطَة
محمّد بن الأحْمر

حوالي سنة (١٢٤٠ ميلادية) كانت اسبانيا الإسلامية (الأندلس وممتلكاتها) تموج في بحر من الفوضوية ، يتنازعها أكثر من حاكم ، ويتزعمها كل من يجد في نفسه مطمحاً لجاه أو رغبة في سلطان .

على هذا النسق الهمجي سارت أمور مملكة العرب في الأندلس حتى آل أمرها إلى النتيجة الطبيعية لتلك الحالة ، فغدت بعد أن كانت مملكة إسلامية متحدة تسيطر باسم الإسلام وتحت رايته على بقعة كبيرة ممتدة واسعة الأطراف ، ممالك متنابذة متنافسة ، كل هم ملوكها ألقاب طنانة وحاشية منافقة وبهرجة وزخرفة ، ثم لا يعنيهم بعد ذلك . . . أخذلت النصرانية أم نجحت . . . أهزم الإسلام أم انتصر . . .

هذه حال المسلمين في الأندلس خلال القرن الثاني عشر الميلادي . . . السادس الهجري !

بيد أن حكم الله في الأندلس لم يكن قد حان بعد . . . فقضت عنايته بأن دولة الإسلام في الأندلس ما زال في عمرها بقية ، وأن هناك تاريخاً آخر سيمتد ويظهر في الأفق ويسطع في سماء الأمة الإسلامية .

في وسط هذا الجو القاتم الذي ذكرناه آنفاً ظهر بطل الأندلس العظيم (محمد بن يوسف) المعروف بمحمد بن

الأحمر ، وكان على قدر محمود من الشجاعة والنبوغ مما جعله يفكر في حال الأندلس وما آلت إليه ، وبدأ ابن الأحمر يفكر ويشغل فكره ويتعب ذهنه ليجد جواباً لسؤاله الحائر . . .

كيف يستطيع إنقاذ الأندلس من الهوة السحيقة التي هي على شفا حفرتها ؟ وفكرّ ابن الأحمر وقدّر . . . وخرج بالنتيجة وهي أنه لا بد وأن يترقب الفرصة ويتحين الوقت الملائم .

وحانت الفرصة ، وجاء الوقت الملائم ، فلقد مات حاكم غرناطة (أكبر إمارات الأندلس) وترك أمرها بدون خلف أو وريث ، فبادر ابن الأحمر بمساندة أعوانه إلى الإمساك بزمام الحكم في غرناطة وفي إمارة صغيرة اخرى تدعى (المرية) ، وتطلع الناس وداعبتهم الأحلام وعقدوا جسام آمالهم على هذا الشاب الذي يتوسمون فيه الخير وتبدو عليه سيما الصلاح والعبقرية .

* * *

في يوم من أيام عام ١٢٤٤ ميلادية وردت إلى ملك قشتالة (فرديناند الثالث) النصراني أخبار عن محمد بن الأحمر وعن مدى حب الشعب له وتعلقهم به ، وعن مدى طموح ابن الأحمر ونبوغه . وأسرها فرديناند في نفسه وساورته الشكوك ، وخيل إليه أن آماله وأطماعه في بلاد المسلمين قد بدأت تتبدد باستيلاء هذا الطموح البطل على مقاليد الأمور ،

وعاهد فرديناند نفسه أن لا بد من القضاء على ابن الأحمر والنيل منه، وقام على الفور فأرسل جيشاً كبيراً لحصار غرناطة واحتلالها ولكن لأمر يعلمه الله لم يكن الحظ معه بالرغم من ضعف المسلمين في غرناطة ، فما كادت قواته تشرف على أسوار غرناطة حتى أصابها وابل من السهام ردها على أعقابها خاسرة . . .

ووردت الأنباء إلى فرديناند الثالث بهزيمة جيشه فتأكد من أن الأمر جد خطير ، وعقد العزم على القيام بنفسه لمحاربة ابن الأحمر ، وأسرع فأعد الجيوش والعتاد واستعان بشعبه فأعانه حتى تم لديه ما أراده .

وهنا نقف لحظة لنرى كيف تصرف ابن الأحمر حين علم بما دبره فرديناند الثالث . . فأين له بمواجهة هذه الجيوش الجرارة ؟ ووجد ابن الأحمر نفسه في مأزق حرج يتطلب الحكمة والحذر لأن دولة صغيرة ناشئة كدولته لا يمكن أن تقف أمام دولة راسخة الأقدام كدولة قشتالة التي يحكمها فرديناند الثالث . .

وصمم ابن الأحمر على شيء وعقد عزمه عليه . . . !!

إنه سيستسلم لفرديناند وسيعلن له طاعته وولاءه ، وسيوهمه بأنه سيدفع له الجزية صاغراً ، حتى تنقشع هذه الظلمة ويعود فرديناند بجيوشه ، وبعدها يكون ما يكون . . .

وفعلاً . . فعل ابن الأحمر كل ذلك بحذافيره ، وأوهم فرديناند بالصلح وقبل شروطه وودعه في سلام ، وعاد فرديناند الى بلاده مزهواً بالنصر الذي حققه وبغرناطة التي استسلمت له بدون تعب ، ولو علم فرديناند بأن هذه المصانعة من ابن الأحمر إن هي إلا كسب للوقت وتحقيق للنصر من أقرب طريق لكان له بدل هذا الفرح حزن وكرب عظيم .

* * *

بعد مضي حادثة مصانعة ابن الأحمر لفرديناند السابقة بعشرة أعوام ينظر الناظر إلى غرناطة وممتلكاتها فيكاد من شدة ذهوله أن يكذب ما يراه ، وأن يجزم بأنه ليس في غرناطة ، لأن عين الناظر هذه ستقع على نوع جديد من الحياة غير التي كانت فيها من قبل ، ستقع أول ما تقع على حصون منيعة وجيوش قوية لها من العتاد فوق ما كانت عليه في الماضي عشرات المرات ، وإذا دقق الناظر جيداً وأمعن النظر في الحياة التي حوله فإنه سيجد شعباً غير الذي كان من قبل ، فهذا شعب متحد متساند ، ليس همه أن ينال منصباً أو جاهاً ، وإنما كل همه الاتحاد والأمل في لقاء أعدائه وأعداء دينه النصرانيين .

* * *

ولم يطل انتظار هذا اليوم ، فما إن رأى محمد بن الأحمر القدرة من نفسه ، والتضحية من شعبه ، حتى رفض دفع الجزية لفرديناند وأعلن الخروج من طاعة النصرانيين ، وسرعان ما أعد ابن الأحمر جيشاً قوياً استعان في تكوينه بأصدقائه (بنو مرين) وكثير من ملوك المغرب ، وقام بتحصين مملكته على خير ما يكون واستعد استعداداً تاماً للمعركة الفاصلة وأقبلت جيوش النصرانيين تتهادى ، مختالة متبخترة ، وكأني بها قد ظنت أن كل الأيام لها ، أو أنها قد أخذت على الشيطان عهداً بالنصر في كل المعارك .

ودارت المعركة ، واشتد القتال ، وتقدم ابن الأحمر الصفوف وهو يضرب بقوة ، ويجهز على صفوف الأعداء يضرب فيها ذات اليمين وذات الشمال ، ومضى الوقت ساعة تلو ساعة ، وابن الأحمر لا يدري كم مضى وكم بقي وإنما الذي يعيه جيداً أن أمامه عدواً لا بد من القضاء عليه .

ومضى في المعركة مسترسلاً فيها فما أوقفه إلا صوت يصيح به :

كفى يا سيدي القائد فما بقي منهم أحد . . . فصاح به ابن الأحمر : هل انجلت المعركة حقاً . . . أيها الجندي ؟ . . . نعم يا سيدي القائد . . وانتصرنا . . . والحمد لله . . . ولقد ولى الكفار الأدبار . . . فصاح القائد من شدة فرحه :

انتصرنا . . انتصرنا . . حقيقة لقد انتصرنا . . الله أكبر الله أكبر . فهتف المسلمون وراءه : الله أكبر . . الله أكبر . .

فسجل التاريخ أن عمر الإسلام في الأندلس قد كتب له امتداد جديد ، وفتحت له صفحة جديدة . .

صفحة امتدت أكثر من قرنين من الزمان !!

صفحة ابن الأحمر في غرناطة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
القسم الأول (صور من حضارتنا الإسلامية)	٩
صورة من حضارتنا في الصين	١١
من حضارتنا في الاتحاد السوفيتي	٢٥
من حضارتنا في الهند	٣٣
دولة السلاجقة	٤١
صور من حضارتنا في المغرب	٤٩
القيروان صورة من حضارتنا المزدهرة	٥٧
دولة بني حماد	٦٧
دولة المرابطين	٧٩
دولة الموحدين	٨٧
صورة دولة بني زيان	٩٥
الصورة الحضارية لملوك الطوائف	١٠٣
صور من حضارتنا في غرناطة	١٠٩

القسم الثاني (بطولات اسلامية)	١١٥
بطل القادسية	١١٧
عزيمة لا تلين	١٢٩
رجال صدقوا	١٣٩
الفقيه القائد	١٥١
دفاع عن الكرامة	١٥٩
سيرة بطل	١٦٧
بطولة وأمل	١٧٥
الغواص المجاهد	١٨٥
بطل من غرناطة	١٩٣

هذا الكتاب

صور من حضارتنا ... التقطت من حديقة الحضارة الإسلامية الثرة المعطاءة ..

وحضارتنا حضارة « دعوة » و « دولة » ... وأمجادها العظيمة وصفحاتها الرائعة إنما كتبها الأفراد المسلمون ، والحكام المسلمون ... إذا التحم هؤلاء بأولئك . أما إذا اختلفوا وتصارعوا ، فالويل لكليهما معاً ... والعدو هو الفائز الوحيد ..

وهذه الصور والبطولات تؤكد هذه الحقيقة ، وتومئ إيماءات قوية — لمن ألقى السمع وهو شهيد — إلى أكثر من معلم من معالم حضارتنا صعوداً وهبوطاً .

وتبقى من وراء هذه القصص ، ومن وراء قصص السقوط ، عبرة كبرى تلخصها آيتان كريمتان .. أولاهما تقول : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .. وثانيهما تقول : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ﴾ .. هما قانونان حضاريان لا ينفصلان .. علمتنا إياهما حضارتنا الإسلامية الخالدة بإذن الله .

دار الصحوة

٧ ش السراى بالمنيل . ت : ٩٨٧٩٢٤

حدائق حلوان . ت : ٦٨٨٠٧١

القاهرة

Bibliotheca Alexandrina
03546698